المدن الفاضلة

محمد يونس الحسيني

القاهرة
١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

المطبعة السلفية
بجزيرة الروضة . القاهرة

المدن الفاضلة

محمد يونس الحسيني

القاهرة
١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

المطبعة السلفية

إهداء

مُؤمنٌ صَدَق ما عاهد الله عليه

بَطلٌ من مُجاهدى كوت العمارة فى العِراق ،

ذاد عن المسجد الأقصى فى القدس الشريف ،

ذلك هو :

صاحب الدولة أحمد حلمى باشا

وإليه أهدى هذا الكتاب ؟

محمد يونس الحسينى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعارف العلماءُ تقسيمَ المعارف الإنسانيةِ إلى دوائرَ وأقسامٍ واضحةِ المعالم، بيِّنة الحدود. وهم يقصدون، من وراء ذلك، تبسيطَ المعرفة بالعالم الطبيعى - المعقد اشدَّ التعقيد، المنظَّم أعظم تنظيم، المملوء بالأسرار والمفاجئات - وتسهيلَ معرفةِ حدودهِ التى لا تنتظمها ضوابطُ ما.

غير أن علينا أن نذكر - كما يقول الأستاذ بريرلى - أن هذه الأصول هى عملية مصطنعة؛ لأن كل دائرة للمعارف - ولا فرق فى أن تكون من النوع الواسع، أو أن تكون من النوع الضيِّق المختص بمسألة واحدة فقط - لا تحيط سوى بجزء واحد، ووجه واحد للحقائق الكثيرة الموزَّعة هنا وهناك فى ميادين الطبيعة. ومن أجل هذا، كان لزاماً علينا، عندما نركِّز بحثنا فى الدائرة التى أمامنا مُباشرةَ، أن ندرك أن بحثنا يتعرض لناحية واحدة من المسألة، وعلينا أن نوسعه بالاطلاع على أبحاث دوائر المعارف الأخرى ومصادرها، لكى نحصل على صورة مركَّزة بعض التركيز، كاملة نسبياً تحيط بالحقيقة كلها وتلمُّ بجميع أطرافها. ولا بدَّ لنا من تفهُّم صلة الماضى بالحاضر، ومن تلمُّس أثر هذا الحاضر فى المستقبل.

« قد يخطر لك أن تصف شجرة مما يظهر من أقسامها أمام بصرك: فتصف الجذع والأغصانَ والورقَ والزهرَ والثمر. ولكن هذه الدائرة من المعرفة بالشجرة لم تبين لك سوى قسم من حقيقة حياة تلك النبتة؛

فالجذور الكامنة تحت الأرض ، والتربة التى نشأت فيها وتغذت بعناصرها ، والماء الذى حمل تلك العناصر ، والهواء ونور الشمس اللذان لولاهما لما أتيح لها أن تتنفس وأن تنمو : كل هذه العوامل لم تدخل فى دائرة معارفنا الأولى ، بل كانت غائبة عن أعيننا عندما أخذنا فى وصف الشجرة من أجزائها الظاهرة للعيان . وصفوة القول إن الشجرة مرتبطة بألف حلقة من سلسلة تاريخها الماضى وظروفها الحاضرة ؛ وإن إدراك الإنسان لحقيقتها يتوقف على نسبة اكتشافه لتلك الحلقات ، ومقدار تفهمه لتلك الروابط والصلات ، وتقديره عِظَم تأثيرها فى ذلك الكائن الحى الذى لا يظهر منه للعينين سوى أقسام معينة » .

على أن هذا المثل قد يبدو لأول وهلة بعيداً عما نحن بصدد دراسته من النظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية (بتحديدها الواسع) وأشكال الحكومة والقانون . ولكن الواقع غير ذلك : إننا إذا اقتصرنا على وصف تلك النظم والمؤسسات من وجوهها البادية أمامنا ، نكون كمن اقتصر على وصف الشجرة مما بدا له من أقسامها الظاهرة . وليس بوسع الباحث أن يفهم نظاماً ما ، بَلْهَ أن يحكم بصلاح قانون أو عادة أو عرف - اجتماعى أو سياسى - قبل أن يُلمّ بجميع الظروف والأحوال والعوامل التى أدت إلى نشوئه وانتشاره فى الماضى ، وقبل أن يحيط بالقوى التى تؤثر فى وصفه الحاضر وتعدّل فى تقدير قيمته العملية فى المستقبل . وعلى الجملة علينا أن ندرس النموّ بالنسبة إلى حال الأرض التى نبت الشجر فيها .

دراسة العالم الذى نعيش فيه : لقد بيّن كاتب حديث هو ا . ل . روس ، فى كتيّب له سماه «فائدة التاريخ [1]» الأسباب التى تحتم دراسة التاريخ

---

[1] - A. L. Rowse, The Use of History

للوصول إلى قصة الزمن الحاضر . إن الفائدة الرئيسية ، وليست هى الفائدة الوحيدة ، كما يقول هذا المؤلف ، من فوائد التاريخ ، أنه يؤهِّلك – أكثر مما يؤهِّلك أى نظام آخر – لأن تتفهم وتدرك قيمة الأحداث العامة والشؤون والنزعات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأيام التى تعيش فيها . ويتساءل الاستاذ روس بعدئذ ، وماذا قد يكون أعظمَ وأجلَّ من ذلك ؟ لأنك إذا لم تفهم العالم الذى تعيش فيه تكون ولا شك دُمية له يعبث بها ، وقد تصبح يوماً ما من ضحاياه الكثيرين . والتاريخ ، فى رأيه ، يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى قصته ، وفى الظروف والعوامل التى جعلت ذلك المجتمع فى وصفه الحاضر ؛ على أن معرفة الصورة التى كانت عليها المجتمعات الإنسانية فى الماضى ، وما أصابها من التطوُّر ، يُقدِّم لك مفاتيح العوامل التى تؤثر فيها ، ويوقفك على المؤثرات والمعوِّقات ، العامة والشخصية ، التى تصقل الأحداث وتركزها . إنك تبحث فى الطبيعة الانسانية كل الوقت .

إن موضوع هذا الكتاب هو فى « المدن الفاضلة » . وهو بحث فى طبيعة الإنسان . ولكنه بحث نظرى خالص . وعلينا أن نذكر عند النظر فيه أن العلماء الذين ألَّفوا موضوعاته لم يكتبوا فى لوح نظيف أبيض ، وإنما أملوا ما كتبوه تحت تأثير ظروف عصورهم العامة ، وشؤون حياتهم الخاصة . وليس فى الإمكان قطع صلة الحاضر بالماضى ، كما أنه من غير الميسور نقل أسس التفكير من عقل إلى عقل آخر ، ومن عصر إلى عصر آخر ، من غير أن تصيبها يد التعديل والتحوير .

أما الثورات التى حدثت فى التاريخ المدوَّن فقد تثبت أن « اللوح » الذى رسمت عليه عوامل الأحداث الجديدة لم يكن نظيفاً أبيض تماماً . إن المؤثرات التى تكوِّن الأنظمة الثورية الجديدة ، والسنن والعادات والتقاليد

السائدة وأخلاق الشعب ، والموارد الوطنية ، وأثر المناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، فى المغانم والمنافع الوطنية الدائمة ، والمواقع الستراتيجية ، والاحوال الاقتصادية وغيرها : ـ كل تلك العوامل تتجمع وتتحد لتقف فى وجه من يتوهم أن البداية الجديدة تعنى عالماً جديداً . إن الخلف دائماً يأخذ عن السلف ويغرف من بحره .

والواقع أننا كالشجرة ، أُصولنا فى تربة التاريخ ، وتتحكم بنا الأحوال التى نولد فيها . غير أننا نستطيع أن نفعل أكثر من إغناء التربة بجثثنا بعد الموت ، لأننا لسنا شجراً أو نباتاً ، بل نستطيع أن نعمل على تغيير بيئتنا وعلى إنتاج أحوال وظروف لم تكن لأسلافنا وأجدادنا ، ولم يكن ليتوهمها أو يحلم بها أولئك الأسلاف والأجداد .

ولا يوحى إلينا التاريخ أن الإنسان هو مجرّد آلة صمّاء فى ميدان القوى الطبيعية ، لاحول له ولا طول أمامها ؛ فان فكرة كهذه بعيدة عن الحقيقة كبعد ذلك التوهم ـ القائل بأن الانسان يستطيع بإرادته أن يتحلل ويتحرر من تقاليد الماضى ومؤثراته ـ عن الواقع . ولم يبرهن لنا التاريخ وجوب « بقاء ما كان على ما كان » إلى مالا نهاية بل لقد أرانا النقيض من ذلك : أرانا أن أفعال الإنسان تؤثر فى مقدرات الإنسان ، بالرغم من تمسكنا بقاعدة الاستصحاب واعتبار أن الأصل بقاء ما كان على ما كان كبداية نسير منها فى البحث .

إننا نتعلم الكثير فى السياسة والقانون والاجتماع من الكتب العظيمة التى أُلفت فى الماضى عن هذه الموضوعات . بيد أننا لا نستطيع أن نفرز السمين فى محتويات تلك الكتب من الغث دون أن نحيط بالظروف التى كتبت فى أيامها . لأن أعظم أولئك الكتاب لم يكن إلا بشراً عاش فى عصر معين ، وفى بلد معين ، ولذلك فقد بنى كتابه على بيئته دون حاجة إلى

أن يصفها لمعاصريه لأنهم كانوا يعرفونها تمام المعرفة ؛ غير أننا نحن الذين نعيش فى عصر غير ذلك العصر ، وفى أرض غير تلك الأرض ، نحتاج إلى من يصف لنا تلك البيئة . وكلما زادت معرفتنا بذلك العصر وذلك البلد زاد إدراكنا لغاية المؤلف وموضوع الكتاب . والواقع أن الأحكام فى التاريخ تتغير بتغير الأزمان والأماكن .

ولنضرب مثلاً على هذا : عند ما كتب أفلاطون وأرسطو عن الدولة والقانون فكَّرا فى الدولة والقانون على الوجه المعروف لديهما فى الدويلات اليونانية — المدن Polis — وإن ترجمة هذه الكلمة (المدينة) بالدولة هو خطأ شائع . إن الدولة (المدينة) هى فى عرف العصر الحاضر مجتمع صغير ، ولكنها كانت فى عين أفلاطون وأرسطو مركزاً ملائماً لدراسة أصول الحكم والقانون . ولذلك فان جميع نتائج دراساتهما مشوبة بتأثير هذا الافتراض . وإن كثيراً من نتائج تلك الأبحاث لا يمكن تطبيقه على دول العصر الحاضر ، مع أن القائمين بها لم يقصدوا تطبيقها عليها . والحال على هذا مع بقية المؤلفين العظام ؛ إنهم لم يؤلفوا للعصر الحاضر : ولكنهم كتبوا ـ عمداً أو عن غير قصد ـ على أساس المسائل التى سادت فى عصرهم وفى بلادهم .

ولكن ما دام علينا أن نأخذ بعين الاعتبار جميع هذه العوامل ـ الزمانية والمكانية ـ عند ما نقرأ المؤلفين القدماء ، فلنا أن نتساءل : لماذا نظل دائبين على دراستهم إذا كنا لا نجد فيها ما يستحق البحث والاستيعاب ؟ وإذا كان أولئك المؤلفون قد اكتشفوا حلولاً للمسائل التى صادفتهم فى السياسة وأصول الحكم ، أليس بوسعنا أن نضع حلولاً لمسائلنا من المؤلفات الحديثة ؟

لقد وضع الاستاذ (جلبرت مورى) فى مؤلف حديث له اسمه (دراسات

إغريقية) سببين لرفض هذه النتيجة : الأول أن المسائل الفلسفية لا تقتضى حلولاً لها كما هى الحال فى المسائل العلمية ؛ وإنما يكفى فيهـا أن تُفهم وتُدرَك . مثال ذلك أنك لا تجد حلاً نهائيا فى الفلسفة السياسية لطبيعة الالتزامات السياسية ، أو للعلاقة الصحيحة بين الفرد والدولة التى هو من رعاياها ، أو للمركز الذى يشغله القانون بالنسبة للحكومة . ليس بوسعك أن تحل هذه المسائل وأمثالهـا ، ولـكنك تستطيع أن تفهمها وترفض الأجوبة الخاطئة بالنسبة اليها . وخير طريق لك هى أن تبحث هذه المسائل المرة تلو المرة بمساعدة العقول العامرة التى فكرت فيها فيما مضى من الأزمان

والسبب الثانى الذى جاء به الاستاذ (مورى) هو أن علينا ـ إذا رغبنا فى أن نلم بالمسائل التى أمامنا بشكل واضح ـ أن نخرج من جوّ التقليـد والعرف ، المحبوسة فيه جميع أفكارنا ، لأننا إذا نظرنا إلى كل المسائل الفلسفية الدائمة بمنظار المدنية الغربية الحديثة فحسب ، نكون قد قوينا أسوار ذلك الحبس . وخير طريقة لتحرير أنفسنا من هـذا الميل وذلك الانحراف الملازم لبيئتنا أن ننظر إلى تلك المسائل بمنظار جديد ، وبطريقة غريبة عنا .

ومثل آخر على تأثير البيئة المحلـيّة أو البلد على البحث نستقيه من العصر الحاضر . إن تعريف الديموقراطية فى التمدن الغربى الحـاضر هو غيره فى الـكتلة الشرقية . فاذا راجعنا قاموس أكسفورد الانكليزى مثلاً نجـده يعرّف الديموقراطية بأنها « حكومة من الشعب ؛ ذلك الشكل من الحـكومة الذى تكون السيادة فيه للأمة كمجموع ، فتمارسها إما مباشرةً (كما كانت الحال فى بعض جمهوريات الاقدمـين) أو بواسطة موظفين تنتخبهم . وفى الاصطلاح الحديث تعنى بشكل يكتنفه الغموض دولةً اشتراكيةً يتساوى الناس فيها بالحقوق ، دون أن تكون هنالك فوارق إرثية أو استبدادية فى الطبقة أو الامتيازات » . أما ساسة روسيا السوفيتية فيستعملون هذه الكلمة

فى التعبير عن معان غير هذه : لقد جاء فى خطاب للمسيو (فيشنسكى) نائب كوميسير الشؤون الخارجية السوفيتية : « إن الديموقراطيين هم أولئك الذين حبسوا جهودهم على خدمة الشعب ، وهم الذين على استعداد لأن يضحوا بحياتهم ، الذين يعملون من أجل الشعب ؛ من أجل الفلاحين ، والعمال والمثقفين ، ويعملون من أجل أولئك الذين يخلقون بعملهم وكدحهم الطيبات والأشياءَ التى لهم الأولوية باستعمالها » .

وهذا التعريف يجعل التمييز بين نوع الحكم الديموقراطى والأنواع الأخرى متوقفا على الغرض الذى تستخدم فيه سلطات الحكومة ؛ بينما نجد التعريف الغربى لهذا المصطلح يشير إلى طريقة تأليف تلك السلطات .

ولندَعِ الآن هذه الأبحاث العامة لنتقدم إلى بحث « المدن الفاضلة » التى أفردنا لها فصول هذا الكتاب .

إن كل الدراسات الحديثة الصحيحة فى أصول علم السياسة تبدأ باليونان بوجه عام وبجمهورية أفلاطون بوجه خاص . هنالك ترجمات انكليزية كثيرة للجمهورية ، منها ترجمة (جويت) ودكتور (كورنفورد) . وهناك ترجمة عربية واحدة للشيخ الجليل حنا خباز ؛ وقد اعتمدنا عليها وراجعنا أرقاماً منها على الترجمات الانكليزية . ولا تكاد تخلو لغة من اللغات فى العالم من ترجمة هذا التراث العظيم . وقد يكون كتاب الجمهورية فى مجموعه قطعة أدبية خالدة ، أو أنه – كما وصفه سير فردريك پولوك – إنتاج عبقرى للخيال الفلسفى أكثر منه بحثا فى علم السياسة .

إن مؤسس علم السياسة الحقيقى هو أرسطو . أما أفلاطون فقد اتخذ أسلوباً متماثلاً فى تحليله حياة الانسان الخاصة ، والمسائل العامة على السواء ، بينما كان أرسطو أولَ من فصل بين الأخلاق والسياسة ، وأفرد كتاباً لكل من هذين العلمين . على أنه ليس بوسع أحد أن يُنكر الصلة بين

الأمرين . وقد يكون الاتصال فى عهد الدويلات اليونانية وأيام أفلاطون واضحاً أكثر منه اليوم . ومع ذلك فان الموضوعين ليسا سواءً ، كما أن اعتبارنا للدولة كالفرد — كما فعل أفلاطون — يؤدّى بنا إلى التشويش . فننحرف عن سواء السبيل .

إن العجز عن التمييز بين الدولة والمجتمع فى العصور الحديثة ، وإن الاعتقاد بأنه ليس ثمة حدود لسلطان الدولة لأنها تقوم من تلقاء نفسها بكل ما تراه مناسباً أو ضرورياً للحياة الرغيدة ، هو أصل أركان الديكتاتورية الحديثة Totalitarianism وعلى ذلك ، وفى الواقع ، علينا أن نعترف بأن نظرة اليونان إلى الدولة كانت ديكتاتورية ؛ من أجل هـــذا قد يتساءل المرء ، وله ملء الحق فى هذا التساؤل ، لماذا ما تزال النظريات الإغريقية فى السياسة ، تشغل مركزاً جليلاً فى الدراسات الحديثة ؟ والجواب على ذلك أن وجه التشابه بين الديكتاتوريات الاغريقية والديكتاتوريات الحديثة هو سطحى فقط ، وقد نشأ من طبيعة المدينة اليونانية (Polis) . لقد جوّز اليونان « للمدينة » أن تمتد بسلطانها إلى جميع مناحى الحياة دون أن يضحوا بالفرد فى سبيل ذلك كما فعلت الديكتاتورية الحديثة ؛ ذلك لأن المدينة كانت صغيرة يقيم فيها مجتمع قليلٌ عدد أفراده ؛ ولأن الحكومات جعلت للرعية مطلق الحرية فى أن يعيشوا كما يشاءون وتشاء لهم أحوالهم .

مما تقدم تتبين لنا قيمة دراسة كتاب الجمهورية لافلاطون ، وهو أول كتب المدن الفاضلة التى عرفها التاريخ . أما الثـــانى من تلك الكتب فهو « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى . وقد أسهبنا فى وصف العصر الذى وضع فيه المؤلف كتابه ، وبيان أحوال العالم الاسلامى يوم كتب ذلك الكتاب . لقد سار الفارابى فى كتابه على أسلوب علماء القرون الوسطى فمزج بين الفلسفة الالهية والاخلاق والسياسة ؛ ووضع تعليلاً للنبوّة ـ قال :

« وذلك أن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان ما قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من الخارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا أخذ منها للقوة الناطقة . . . لا يمتنع أن يكون الانسان — إذا بلغت قوّته المتخيلة (على هذا الوجه) نهاية الكمال — يقبل فى يقظته عن العقل الفعّال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوّة بالأشياء الإلهية ».

ومدينة الفارابى التى تخيّلها تسير على النظام الديكتاتورى : هنالك رئيس له صفات الامامة الشرعية كاملة — ودونه قوم مرءوسون منه ويرؤسون آخرين . . « ويصير الرئيس بما يفيض من العقل الفعال إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن » .

لقد اختار الفارابى أول رئيس لدولته نبياً حكيماً ، ويؤخذ من أوصافه أنه قصد به رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يقيد خلفاءه بالشريعة ، وإنما جعل لهم الخيار فى توزيع العدل على الرعية كما يختارون . إن الرئيس الذى يجمع بين النبوّة والحكمة لم يوجد على الأرض بعد محمد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ولذلك فانه لا بدّ لسعادة البشر من التمسك بالمبادئ لا بالأشخاص ، ولا بدّ إذاً من الخضوع إلى شريعة يحتكم اليها الخاصّ والعام فتساوى بينهم فى الحقوق والواجبات . ولا تحقق المدينة الفاضلة هذا للناس كافة ، ولا تضع ضماناً لحرياتهم .

وكذلك نرى أن حكومة الرئيس الفيلسوف هى لون من الحكم أحط من حكومة الشريعة والقانون . لأن الرعية فيها يقفون موقفاً سلبياً لا يقومون إلا بما يأمرهم به الرئيس ، بينما فى حكومة الشريعة تتعاون الرعية

على بلوغ السعادة للدولة ورعيتها ولا يتوقف بلوغها على صلاح الرئيس أو فساده بل على تعاون الأمة جميعاً تعاوناً وثيقاً مستهدفاً خيرها .

والمدينة الثالثة من المدن الفاضلة التى خلدها التاريخ هى (يوتوبيا) التى ألفها سير توماس مور . لقد عاش مور فى القرون الوسطى : ومن العسير أن يبسط المرء قاعدة عامة استنبطت من مجرى التفكير فى تلك العصور ، لأن ذلك قد يوهم الباحث بأن الناس فى تلك الأيام اعتنقوا مذاهب فكرية متماثلة . ومهما يكن من أمر فان من الحق أن يقال إن المفكرين فى القرون الوسطى — ومن جملتهم سير توماس مور — آمنوا بحقيقتين جوهريتين فى الفكر السياسى : أولاهما أن سلطان الدولة هو محدود دائماً ، وأن السلطة العليا والسيادة فى الدولة هى للقانون ، ويجب أن تكون دائماً كذلك . والفكرتان متصلتان ببعضهما ، غير أننا سنتحدث عن كل منهما فيما يلى :

لقد كانت القرون الوسطى معارضة للديكتاتورية . ولم يكن فى الإمكان أن تكون تلك العصور على غير ذلك . لأن السلطة كانت موزعة فى كل مكان بين قوّتين : القوّة الروحية والقوّة الزمنية . إن النزاع الطويل بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدّسة قد أخمد أنفاس الديكتاتورية ، ولم يمكنها من رفع رأسها عالياً . ومهما يختلف الناس فى حدود منطقة نفوذ كل من هاتين المنظمتين فان الحاجة كانت ماسة فى النظام الاجتماعى لكلتيهما ، وكان بديهياً أن لا تنفرد إحداهما عن الأخرى باحقيتها بولاء الناس جميعاً خالصاً لها من دون الأخرى .

أما سيادة القانون فقد كانت تعنى أن القانون هو الذى عيّن حقوق الحاكم . لقد وجد بين حكام تلك الأيام من طغى وتجبر على الرعية ، ولكنه لم يكن ليدّعى أنه يقوم بأعمال الجور والطغيان إنفاذاً لحكم القانون . وقد كان الرأى الإجماعى السائد آنئذٍ أن القانون هو الذى أوْجدَ الحاكم ،

وليس — كما ادّعى بعض الحكام المستبدين فيما بعد — أنهم هم الذين أوجدوا القانون . والواقع أن القرون الوسطى لم تنظر الى القانون كمجموعة وضعها بعض النـــاس عن عمد وتصميم ، وإنما كانت تعتبر منهاجاً حوى حقوق الناس وواجباتهم على وجه العدل والإنصاف ورثه المجتمع عن أسلافه الغابرين .

ولعل ما يقابل سيادة القانون هذه ، فى العصور الحديثة ، هى الدساتير فى البلاد المختلفة المتمدنة .

ونحن نقف الآن فى إشارتنا إلى المدن الفاضلة الثلاث التى أفردَ لها هذا الكتاب . ونرى لزاماً علينا قبل أن نختم هذه المقدمة أن نشير إلى مدينتين فاضلتين أخريين فى التاريخ : أولاهما مدينة الشمس [١] تأليف كامپانيــلا ؛ والثانية مغامرات تيليماك تأليف فينيلون [٢] .

تعتبر مدينة الشمس من المدن الفاضلة لأنها تصور دولة مثالية فيها شَبَـهٌ كثير ، وخلاف كثير ، لما فى المدن الفاضلة الأخرى . كان كامپانيلا راهباً دومنيكياً عاش بين سنة ١٥٦٨ وسنة ١٦٣٩ وعُذِّب عذاباً لم يُعذَّب به أحد ؛ وقضى فى غيابة السجن زمناً طويلا . وكتب « مدينة الشمس » فجاءت قطعة أدبية تسرد ما عاناه فى حياته ، //ووصفاً خيالياً لما تركه شقاء تلك الحيـــاة وتعاستها من ردّ الفعل فى نفسه/. لم يعترف مؤلف مدينة الشمس بالملكية الفردية فى مدينته . وقال بشيوعية الأموال والنساء . وأشخاص الرواية هم أربعة : الرئيس واسمه (هُوه) ومساعدوه الثلاثة وهم الأمراء (پون) و (سين) و (مور) . ويقابل هؤلاء من الصفـات أن ما يأمر به (هوه)

---

١ — The City of the Sun, Campanella.

٢ — Les Aventures de Télémaque, Fénelon.

يوافق عليه مساعدوه الثلاثة . وهذا طبعاً من الصفات الملازمة للديكتاتورية ولعل المسائل التالية هى أبرز مافى الكتاب :

يبحث كامپانيلا بوضوح فى الصراع بين الغرائز الفــــردية والغرائز الاجتماعية ، ويدلل على أن الغرائز الفردية ليست مجرّد أنانية تطيب لنفس الفرد ولـكنها متأصلة فى الأسرة .

« يقولون إن كل الأموال الفردية قد أحرزهـا الناس وحسّنوا فيها كيما يكون لكل منهم بيت وزوجة وأولاد . إن الأثرة وحب الذات ينشآن من هنا . ذلك لأننا كلمـا رفعنا ولداً إلى مركز الغنى والشرف ، وأغدقنـا الأموال على الوارث ، نكون على استعداد : إمـا لأن نعتدى على أموال الدولة ، إذا لم نخف من القوة التى تسيطر على الغنى والشرف ؛ وإما لأن نكون بخلاء متمارين . ولـكن إذا أزلنا من الوجود الأثرة وحب الذات لم يبق أمامنا سوى حب الدولة [١] » .

وإلى جانب هذا نجد فى كامپانيلا بحثا مستفيضاً فى علم التوليد وعقيدة فى أن الأولاد الذين تنجبهم الرعية هم للدولة ومن أجلها ، ولا يختص بهم الأبوان دون الدولة . « إنهم يسخرون منا ويهزأون بنا لأننا نهتم بأصول وعراقة خيولنا وكلابنا ونهمل أصول السلالات البشرية [٢] » .

« إن التصرّف على الرعية منوط بمصلحة الدولة ولا يستهدف منفعة الأفراد فقط ؛ وإنه يجب علينا أن نطيع الشرائع الطبيعية وهى تنكر أن للمرء الحق الطبيعى أن يعترف بفروعه ويعلمهم ، وأن يستعمل زوجتـه وبنيه وأولاده ، كما لو كانوا خالصين له من دون الناس . لأن الشرائع تقول

---

١ – The City of the Sun, p. 225.

٢ – » » , p. 224.

إن الأولاد ينجبون لحفظ النوع وليس للذّة الفردية ، كما بسط هذا الرأى سانت توماس [١] » .

والدولة مسؤولة ـ على حد قول (مور) (الحب) ـ عن تعليم الأولاد ، « لأن الأفراد ـ على الغالب ـ يُنجبون الأولاد خطأً ويعلمونهم خطأً [٢] » .

والمسألة الأخرى البارزة فى مدينة كامپانيلا هى نظرته إلى العمل . يلغى كامپانيلا فى كتابه الرق والاستعباد ويُمجّد جميع أنواع الأعمال . ويحدد ساعات العمل اليومى بأربع فقط ، على أن تُقضى بقية ساعات اليوم بالتعلم المبهج .

وأخيراً فلنبحث فى (مغامرات تيليماك) تأليف فينيلون : إن هذا الكتاب رواية تربيوية أُلّف بادئ الأمر لتعليم دوق برجاندى الشاب . وقد مزج فينيلون فيه الأساطير الكلاسيكية بالدروس الخلقية والسياسية .

يُقسم الكتاب إلى مدينتين فاضلتين ، الأولى (لا بيتيك [٣]) والثانية هى مدينة (سالنت [٤]) .

إن بلاد (لا بيتيك) السعيدة قد حبتها السماء بموقع عظيم ومناخ ليس له مثيل على اليابسة أو فى البحر . سماؤها صافية جميلة ، وشتاؤها دافىء ، وصيفها منعش وهواؤها عليل . وفصولها طول السنة ازدواج الخريف بالربيع . ومن أجل ذلك فان الأرض تنتج محصولين فى السنة . وأطراف الطرقات مغطاة دائماً بالأشجار الخضراء ، وقمم وسفوح الجبال تغص دائماً

---

١ - The City of the Sun p. 235.

٢ - » » p. 236.

٣ - La Bétique ٤ - Salente

بالأنعام . ومن المسلم به أن الناس الذين يعيشون فى مثل تلك الأحوال تلبسهم السعادة من الرأس إلى أخمص القدم . ولكنهم مع ذلك يقنعون بالحياة البسيطة ويستخدمون الفضة والذهب ـ وهو كثير عندهم ـ فى صنع المحاريث ونظراً لأن مناخ بلادهم جميل فهم لا يحتاجون إلى بناء بيوت يأوون اليها ، وإنما يقضون أيامهم ولياليهم فى العراء أو فى الخيام ؛ ولا يخيطون ثياباً أو يلبسونها لأنه لا حاجة لهم بها . ولا يقتسمون الأرض لأنها مشاع بينهم . ولا يشربون الخمور أو يُسعرون الحروب . وإن فضائلهم لا حدّ لها . والواقع أن فينيلون قد أخذ أوصاف جنات عدن التى وعد الله بها المتقين فأسبغها على (لا بيتيك) .

لقد قال أحد أعلام الأدب الافرنسى إنه يجب للتلذذ بكتاب فينيلون هذا أن يقرأ فى أيام الشباب البريئة ١ »

أما مدينة (سالنت) فانها تتضمن إرشادات لعودة الدولة إلى الحالة السعيدة . تُمنع التجارة الخارجية فى الكماليات ؛ تتلف أدوات الزينة الذهبية والفضية . . . وفى النتيجة يبدأ السالنتيون ـ الذين شكوا فقرهم فى السابق ـ يشعرون بالرخاء والسعادة . لأنهم قد أعيدوا إلى الأرض التى بقيت بوراً زمناً طويلا ، وعُزّزوا بسكان آخرين جُلبوا من الدول المجاورة ليساعدوهم فى الأعمال الصعبة . وقد جبيت منهم ضرائب بسيطة وشُجّع الزواج بينهم

« لم تكن الأرض أبداً ناكرة للجميل ؛ إنها تغذى دائماً بأثمارها أولئك الصالحين الذين يفلحونها بعناية ؛ وإنها تمنع خيراتها عن الذين يضنون عليها بجهودهم . وكلما ازداد عدد أولاد العمال ازداد ثراؤهم . . . لأن الأولاد يبدأون بمساعدة ذويهم منذ نعومة أظفارهم » .

---

١ ـ Dans l' innocence de la Première Jeunesse

وخلاصة ما رأى فينيلون أن يقدّمه إلى ملك فرنسا فى المستقبل هو : ان الترف ضارٌ مضرّ ، وان البساطة فى الحياة أمر مرغوب فيه ، وان الزراعة الناجحة هى من مقوّمات الدولة القوية ، وإن غاية سياسة الدولة يجب أن تكون إيجاد عدد عظيم من السكان يعيشون فى المزارع لافى المدن

وإنا نكتفى بهذا الحدّ من التحدث عن « المدن الفاضلة » فى التاريخ . مع أن هناك مدناً أخرى حديثة قد أغفلنا ذكرها . « وإن المدن التى تحدّثنا عنها ليست فى الواقع نقداً موجهاً إلى الحكومة القائمة والأنظمة الاجتماعية بقدر ماهى نقد موجه إلى الطبيعة الانسانية . إن الانسان أنانى لدرجة أنه يؤثر زوجه وأولاده على أزواج الآخرين وأولادهم . إنه أحمق وطماع ومختال فخور مندفع وراء الشهوات » .

وقبل أن أختتم هذه المقدمـــة أرى أن أشيد بفضل المؤلفات التى أعتمدت عليها فى هذا البحث . لقد أشرت إلى كثير منها فى أماكنها من فصول الكتاب . غير أنى أسجّل هنا تقديرى لكتاب الاستاذ جراى (السنة الاشتراكية ١) ؛ والى الفصل الذى كتبه الأستاذ بريرلى فى كتاب (القانون والحكومة ٢) عن الديموقراطية وفصول أخرى من الكتاب عينه ؛ وإلى كتاب أو جبرن ونيمكوف فى (علم الاجتماع ٣) ؛ وكتاب (علم الاجتماع للقرن العشرين) وقد اشترك فى تأليفه عدد كبير من علماء الاجتماع تحت إشراف جيرفتش ومور ٤ .

---

١ - The Socialist Tradition, by Alexander Gray.

٢ - Law and Practice, Editor, Prof. T. L. Brierly.

٣ - A Handbook of Sociology, by Ogburn, and Nimkoff.

٤ - Twentieth Century Sociology, by G. Gurvitch, and W. Moare.

إن « المدن الفاضلة » التى تضمنها هذا الكتاب خيالية ؛ وقد كنت أرجو أن أضمَّ اليها مدينة حقيقية جمعت الفضل كله وهى مكة المكرمة ، ولكننى لم أتمكن حتى الآن من جمع كل المواد المتصلة بها ، ولعلى أوفق فى إفراد بحث خاص لها فى المستقبل إن شاء الله .

القاهرة فى ١٢ ربيع الأول ١٣٧٠
وفق ٢٢ ديسمبر ١٩٥٠

محمد يونس الحسينى

الفصل الاول

مؤسسات الحكم

كانت الحكومة ، وما تزال ، من أهم العوامل فى حياة الانسان ، ونحن نلمس أثرها اليوم بأنفسنا : فلا بد لمن يولد أن يُسجَّل لدى الحكومة . وقوانين الحكومة المتعلقة بالصحة والأمراض المعدية تحفظ طفولتنا . ونتلقى ثقافتنا الى حدّ بعيد فى مدارس الحكومة . ومتى أراد أحدنا أن يبتنى بيتا جديدا يقيم فيه ، يرى لزاما عليه اتباع قوانين الحكومة المتعلقة بالمواصفات والمواد والمساحة والنور والمجارى والماء وما الى ذلك . وعلينا أن ندفع جزءا من إيرادنا الى الحكومة بشكل ضرائب . وأثمان الطعام والكساء ومواد التدفئة فى البلد تتأثر بسياسة الحكومة . وفى بعض البلدان تُقدم الحكومة الخدمات والاسعافات الطبية والأدوية الى السكان مجانا . فهى تحميهم من هجوم الأعداء ، وتحول دون وقوع الفوضى وشيوع الاضطراب . واذا أردنا السفر من بلادنا فعلينا أولا أن نحصل على إذن من الحكومة . واذا وقعت البلاد فى خطر ، نحارب من أجلها بأمر الحكومة . حتى أن وفياتنا يجب أن تسجل لديها . وهكذا نجد أنّا على اتصال بالحكومة يكاد يكون يوميا من المهد الى اللحد .

وتقوم الحكومات بهذه الخدمات وتنفذ أوامرها بواسطة الادارات والمصالح المختلفة . والحكومات تكون تارة ديموقراطية ، وتكون ديكتاتورية تارة أخرى . وغاية بعض الحكومات أن تخدم الفرد ، بينما يوجد الفرد فى بعض البلدان لخدمة الحكومة . وقد اختلف العلماء فى التاريخ حول البحث فى أعمال الحكومة وأصول الحكم .

ولكى نوضح عمل الحكومة فى المجتمعات المختلفة نرى لزاما علينا أن نبحث فى نشأتها والتطور الذى أصابها فى مختلف الأزمان .

الحكومة فى أبسط أشكالها : توجد عند الشعوب ذات أبسط الثقافات المادية المعاصرة لنا اليوم حكومات بسيطة جدا لا تكاد تظهر معالمها . نذكر من تلك الشعوب على سبيل المثال سكان جزر أندامان [١] والبوشمان [٢] والشوشون [٣] وتيرا ديل فييجو [٤] وغيرهم . فليس لهؤلاء الشعوب حكومات أقيمت خصيصا لادارة دفة الحكم . وآية ذلك أنه ليس لها حكام . يقول توماس : « لست أجد فى أدب البوشمان الشعبى ، على كثرة ما روى لى من حكاياته ، قصةً واحدة تدور حول الزعيم أو حول ابنته » . وقبائل (تيرا ديل فييجو) مثلا ليس لها زعامة قائمة . ولكن عندما تدعو الحاجة الى عمل مشترك تقيم القبيلة زعيما مؤقتا . ففى حالات القتل ، مثلا ، تنتخب القبيلة أحد أقرباء المقتول ليرأس حملة الانتقام والتأديب . وتنتهى زعامته بانتهاء الغاية التى أقيم من أجلها .

على أننا نجد فى هذه المجتمعات أفرادا لهم نفوذ وتأثير فى جمهرة الجماعة كلها . وقد تبين أن الشعوب التى لم تخلف لنا آثارا مكتوبة كانت على الغالب تنظر الى شيوخها المسنين نظرة تقدير واحترام . ذلك لأنهم كانوا يُعتبرون حفظةً ورواةً لسجل تاريخ القبيلة وأدبها الشعبى وأساطيرها وتقاليدها الدينية . وعلاوة على ذلك فان خبرتهم الطويلة فى أمور الصيد والقنص وفى شؤون الحياة الأخرى جعلت لهم منزلة مرموقة وسلطة نافذة بين جماعتهم . وقد خولتهم منزلتهم أن يُسدوا النصح والارشاد لابناء جنسهم ، وخول لهم نفوذهم أن يسيطروا على الجماعة فيحفظون الأمن والنظام فيها .

---

١ - Andaman Islanders . ٢ - Bushman

٣ - Shoshone ٤ - Tierra del Fuego

وهناك نظام طبيعى فى أمور كل فرد أو جماعة نشأ عن التكرار . فحاجات الانسان الضرورية تتكرر دائما. مثال ذلك أن الطعام والنوم يحتاج اليهما المرء كل يوم . وعلى ذلك فان حركة الجماعة اليومية معروفة بسبب هاتين الحاجتين ، وهى تتبع نظاما يوميا معينا بسببهما .

من أجل هذا نجد النظام يسود ، إلى حد بعيد ، هذه المجتمعات البدائية بسبب تكرار الأعمال اليومية وبسبب الزعامة . على أنه يجب علينا أن نقرر هنا أن الزعامة قد تكون سببا للاضطراب والقلق كما أنها سبب للنظام . ذلك لأن الزعماء قد يتناحرون من أجل الاستيلاء على السلطة . ولكن ما دام التكرار والزعامة يحفظان نظام الحياة لا يشعر الناس بحاجة الى حكومة بالمعنى المعروف اليوم .

حاجة الشعوب ذات الثقافة البدائية للحكومة محدودة : هنالك عوامل كثيرة تقلل من الاضطراب وتحد من حاجة الشعوب ذات الثقافة البدائية الى الحكومة . وأحد تلك العوامل هو حجم الجماعة البدائية ، فهى قليلة العدد اذا قيست بالمجتمعات الحديثة . ان كميات الأطعمة عند الشعوب البدائية من جامعى الأطعمة والصيادين قليلة لا تكفى لأعالة أمة كبيرة العدد . وعلى ذلك كان عدد كل جماعة يتفاوت من ١٥ شخصا الى ١٥٠ أو ٢٠٠ شخص . وبسبب قلة العدد يعرف كل شخص بقية أفراد الجماعة معرفة صحيحة تامة . والجوار والرأى العام يكونان دائما أداتين للضغط الاجتماعى . أما فى المجتمعات الحديثة ، حيث يكاد يكون الاتصال الشخصى معدوما ، فان الأمر على النقيض من هذا . ويكاد يكون من المستحيل إيجاد نظام حديث للبوليس يكفى عمليا للقيام بأعباء مهام مدنية حديثة . لقد كتب مندوب للبوليس فى نيويورك يقول « إن قوة بوليس نيويورك ليست كبيرة ، ولن تتسع فى المستقبل الى حد يمكنها من مراقبة جميع الخلايا والخرائب

والعمارات المهجورة والأماكن الاخرى . . . . حيث ترتكب الجرائم » . وثمة عامل آخر يؤثر فى إساءة السلوك فى المجتمعات وهو عدد الأشخاص المصابين بالشذوذ العقلى وطريقة معالجتهم . ليس لدينا لسوء الحظ إحصاء يقابل بين عدد المخبولين فى المجتمعات القديمة والحديثة . ولكن يبدو أن النسبة المئوية كانت قليلة عند المجتمعات القديمة التى كانت تعيش على الصيد ، لأن الناس قد عاشوا فى تلك المجتمعات مئات الألوف من السنين وكيفوا أنفسهم جيدا للمحيط الذى عاشوا فيه . لقد هلك فى المجتمعات القديمة عدد كبير من الزمنى والمخبولين والمشوهين الذين يعيش اليوم أمثالهم فى المجتمعات الحديثة . ان المخبول أو الأبكم أو الأصم أو قصير البصر مثلا يجد الحياة صعبة قاسية فى مجتمع يعيش أفراده على الصيد والقنص . وأخيرا إن ذوى العاهات الذين يُبقى المجتمع عليهم لا يُعتبرون عبئا وعالة عليه . ذلك لأن عددا كبيرا من الشعوب القديمة البدائية تنظر نظرة اجتماعية خاصة الى ذوى العلل العصبية ؛ فهى تدرك أن الصرعى مثلا لاغناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم ، ولكنها تعتبرهم مع ذلك منقذين للناس . وهذا الرأى كان سائداً على الأقل بين رجال الطبابة عند قبائل « الشامان » وعند كهنة هنود أمريكا الحمر . وعالم السحر عند الشعوب القديمة واسع جدا الى حد يساعد على تسوية الشئون المضطربة .

وهنالك أيضا عاملٌ ثالث عند تلك الشعوب القديمة يجعل الحاجة الى الحكومة ضئيلةً جداً ، تلك هى طبيعة الحياة الجامدة . فعندما تظل الشئون الاجتماعية سائرة على وتيرة واحدة أجلا طويلا يتعلم أفراد الناس بالمشاهدة والتجربة أفضل الطرق وأنجع الاساليب للقيام بعمل ما . فتكون النتيجة أن أفراد الناس على السواء يحذقون الأعمال الضرورية لمعايشهم ، وهى بالطبع متماثلة . أما فى المجتمعات الحديثة ، حيث تختلف الأعمال وتتمايز ضروبها وأساليبها ، فتتكون آراء مختلفة فى الصحة والفساد ، يلازمها نشوء أحوال مختلفة

تستدعى معالجات خاصة . وعلى ذلك فلسنا نجد فى المجتمعات البسيطة خلافا جوهريا منشؤه فساد الأعمال ، ولكننا نجد ذلك فى المجتمعات الحديثة المعقَّدة .

وأخيرا نرى أن أكثر الجرائم بينهم مردُّها الى الخلاف على الملكية . وقد لا توجد لدى الشعوب البدائية ملكية فردية إلا بقدر يسير ، ذلك لأن الثقافة المادية هناك كانت وما تزال فى أوائل عهدها ، ولأن متاع كل فرد من أبناء المجتمعات القديمة الصغيرة كان معروفا عند جميع افراد الجماعة ، فلو اعتدى أحد وسرقه لما استطاع أن يتصرف به خلافا لرغبات مالكه الحقيقى فى زمن لم تكن التجارة ووسائل النقل قد تقدمت فيه الى أى حد .

ومهما يكن من أمر فان من الخطل أن نتوهم أن مجتمعات الصيادين القديمة كانت خالصة من كل شائبة ، خالية من جميع الجرائم . فقد عرف أن جرائم كثيرةً حدثت فيها ، منها بعض الجرائم الجنسية . وقد وقعت فيها جرائم القدح والذم والقذف انتهاكا لحرمة عرف تلك الجماعات وعاداتها . فالسمعة الشخصية لها منزلة كبيرة عند تلك الشعوب . وهنالك تطاحن بسبب تضارب المصالح واختلاف الأذواق . وقد تقع خلافات منشؤها الازورار عن العرف الدينى والانحراف عن أساليب عبادات تلك الجماعات .

أساليب الحكم عند الشعوب البدائية : إن الادارة الحكومية التى تخدم الجماعة وتعالج الفساد ليست دائما هى « الدولة » . وفى عهدنا ، إن هذه الادارة هى أجلُّ أعمال الدولة كما يشاهد من إدارة المحاكم والبوليس . غير أن للبيت والمدرسة والمعبد آثارا فعالة فى ذلك . وقد كانت دار الأسرة عند الشعوب البدائية تعالج كثيرا من مسائل أفراد الاسرة الخلقية وغيرها . وهذه الحقيقة تظهر من انواع الأسرة المعروفة فى التاريخ : « اسرة الأمومة » ، حيث تبسط الأم وأقاربها سلطانهم على الافراد ،

و« أسرة الأبوة » حيث يبسط الأب سلطانا أكبر على أفراد أسرته . وقد يكون «الأخذ بالثأر» أجلّ القرائن القاطعة على سلطان الأسرة : ذلك لأنه يُلزم أسرة المغدور بالمطالبة بدمه والانتقام له ، وهذه قاعدة عامة بين شعوب العالم البدائية التي عرفنا شيئا من حياتها . يُستثنى من ذلك بعض شعوب أفريقيا التي لا تعرف هذه العادة . وهنالك جامعة أخرى بين شعوب الصيادين القدماء وهى رابطة القبيلة . وهى تضم أقواما كثيرين يقيمون فى أصقاع مختلفة متقاربة . ولعل منشأ النزاع بين « قيس » و « يمن » عند عرب بلاد الشام وقبائل الحوف القدماء فى صعيد مصر وغيرهم كان من هذا القبيل . وللقبيلة واجبات معينة فى تأديب أفرادها ولا سيما تنظيم أصول الزواج . ويلوح لنا أن القبيلة هى نتيجة تطور أصاب شعوب الصيادين فى آخر أدوارهم .

وهنالك عوامل ومؤثرات أخرى تعمل على تنظيم حياة المجتمع عند الشعوب القديمة . منها الجمعيات السرية ، التى لها نظم خاصة محتّم على أفرادها العمل بمقتضاها . مثال ذلك — ما رواه فريزر فى كتاب الغصن الذهبى — أن الرجال الذين « يأخذون السر » فى جمعيات قبائل « غينيا الجديدة » المعروفة باسم « جمعيات خوار الثور » يُلزمون أنفسهم تأديب النساء عامة ، وإرشادَ الرجال الذين لم ينتسبوا الى تلك الجمعيات ونهيهم عن سوء السلوك ولهو الحديث .

وقصارى القول أننا نجد عند شعوب الصيادين البدائية منظمات مختلفةً غايتها أن تحفظ النظام وتعاقب على الجريمة وتصون الأمن . وهنا يبقىً علينا أن نتساءل هل لدى تلك الشعوب القديمة منظمة خاصة مستقلة وظيفتها الأساسية القيامُ بأعباء الحكم على الوجه الذى يشبه ما تقوم به الحكومات الحديثة ؟ وهل وجدت « دولة » عند شعوب الصيادين القدماء ؟ أم أن

الدولة هى حدث اجتماعى طرأ فى التاريخ بعد انقضاء عهد شعوب الصيادين ؟
فاذا كانت حدثا اجتماعيا فكيف نشأت ؟

طبيعة الدولة : وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة نرى أن نتبسط بعض الشىء فى تعريف الدولة .

قلنا فيما سبق إن الدولة منظمة وظيفتها الرئيسية توزيع العدالة . ولكن من المناسب أن نقول إن الدولة تقوم بوظائف اخرى . فقد تشن الدولة حربا ، وقد تنظم السياحة ، وقد تدير أعمالا تجارية . وعلى ذلك فان للدولة وظائف كثيرة تختلف ، وتتغير باختلاف الزمان واختلاف الشعوب . ولكن هنالك وظيفة واحدة للدولة تُلازمها عند جميع الشعوب القديمة والحديثة وهى صيانة الأمن وحفظ النظام فى بقعة معينة من الأرض وعند جماعة معينة من الناس وهذه هى الوظيفة المتماثلة للدولة عند جميع الشعوب . قد يكون للجماعات الاخرى كالاسرة والقبيلة وظائف اجتماعية معينة ، ولكن الدولة هى ذات السيادة دائما ، وهى المؤسسة الاجتماعية المستقلة التى تتولى الحكم فى جميع الجماعات المقيم أفرادها فى أراضيها وتبسط نفوذها عليهم [١] .

---

١ ـ تتميز الدولة عن المؤسسات والجمعيات الانسانية الأخرى بالأمور التالية :
ا ـــ للدولة وحدها حق استعمال القوة الجبرية
ب ـــ للدولة حق الاشراف على كل ما يدخل فى حياة الذين يقيمون فى مناطق حكمها
ج ـــ الخضوع للدولة فرض على كل من يسكن أراضيها
د ـــ حكم الدولة منوط بأراضيها
هـ ـــ للدولة سيادة كاملة واستقلال تام .
انظر : The individual. the State, and World Government, by A. C. Ewing p. 202

ويبدو أنه لم توجد منظمة حكومية مستقلة عن المنظمات الاجتماعية الأخرى عند الشعوب البدائية القديمة. ولكننا قد نعثر على العناصر الأولى التي يستلزمها وجود هذه المنظمة عند تلك الشعوب ، وهذا يعتبر فى نظر الباحثين أصلا للدولة .

ولعل أحد مصادر فكرة الدولة قد نشأ — عند بعض الامم — من تنظيم حملات الصيد . فالتجمهر والتجمع للصيد حركات تستلزم إيجاد نظام يوحّدها ويركزها ، وقد تشبه من بعض الوجوه الاستعداد للحرب . ولما كانت مصلحة الجماعة تتوقف على التعاون المطلق والطاعة التامة والصدور عن رأى واحد ، فان الرئيس يمارس سلطات بوليسية تامة على جميع أفراد الجماعة . وعلى هذه الحال كان الواقع عند هنود الشوشون ، أن قوام حملات الصيد جماعات ، غير الأسرة وغير القبيلة ، انتقلت اليها سلطات بوليسية من الأسرة على أن تكون ممارستها لها موقتة طبعا .

وثمة أمر آخر يستدعيه إدراك فكرة الدولة ، ذلك هو المنطقة التى يشملها حكم الدولة. وقد ظهر هذا الأمر بيّنا فى الأزمنة السابقة فى المقاطعات الزراعية ، وظهر فى الأزمنة الحديثة بسبب شيوع الملكية الفرديه ، بينما كان يكتنفه غموض كثير عند جموع الصيادين الذين لا تستدعى حياتهم ارتباطهم بمقاطعات لها حدود معينة . ولكن اهتمامهم كان يتركز فى الجماعة التى يؤلفونها وليس فى الأرض التى يسكنونها . على أن الجماعة تعتبر ، على أى حال عند جموع الصيادين ، أمرا يختلف عن الاسرة والقبيلة والجمعية السرية . وآية ذلك نظرتهم الى الجريمة المتماثلة التى يرتكبها اثنان أحدهما من أبناء الجماعة ، والثانى غريب وفد عليهم من مقاطعة اخرى . فالعقاب فى الحالتين مختلف . ومهما يكن من أمر فان أفراد تلك الجماعة لا يدركون ولا

يتصورون وجود مؤسسة مستقلة خاصة يُقرون لها بالولاء ويدينون لها بالطاعة .

وعلى هذا فان الدولة قد نشأت عن تطور وظيفة حفظ النظام وصيانة الأمن . وجليٌ أن الخطر المحدق بكل الجماعة بل بكل المقاطعة كان دائماً الوضع الذى نشأت عنه فكرة النظام من أجل مصلحة الجماعة عامة . وكذلك نجد التنازع والتناحر بين الجماعات من أكبر المسببات لقيام الدولة . وبعبارة أخرى نجد الحرب من أهم أسباب نشوء الدولة . وقد ذهب إلى هذا الرأى جمع غفير من العلماء . ذلك لأنه لابد فى الحرب من قائد يبسط نفوذه على جماعته ، ومن ثم يستمر ذلك النفوذ عليهم فى حالة السلم .

تطور الدولة : لا بد أن القارئ قد لاحظ مما تقدم أنه ليس هنالك تطور مسلسل للدولة من بداية وجودها الى الحكومات المعاصرة . إن المؤسسات الاجتماعية لا تنمو فى سلسلة من الأدوار المتماثلة تمر بها كما ترتقى الأفراد عادة . مثال ذلك أن هنود أمريكا لم يكن لهم منظمات سياسية إلا قليلا ، بينما قبائل افريقيا ، التى لم تعرف الثقافة المادية إلا مؤخرا ، لها دول منظمة الى أبعد حد فى التنظيم ، وتلك الدول تشبه الى حد بعيد بعض دويلات أوروبا الصغيرة اليوم . مثال ذلك أن قبيلة الزولو عانت أشد أنواع الظلم والطغيان من رئيسها « شاخا » فى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد جعل من قبيلته بمساعدة جيش قوامه خمسة عشر ألف رجل قوة لجنوب أفريقيا استغلها فى مآربه الخاصة . وكذلك نجد رقيا محسوسا عند بعض القبائل الافريقية الأخرى فى ممارسه شؤون الحكم . وتلك القبائل (أوغندا) و(شلوك) و (بوشنجو) .

ومع أنه لا يمكن تتبع نشوء الدولة وتطورها بطريقة مسلسلة منظمة ، إلا أنه يمكن سرد العوامل والأوضاع التى أدت الى إيجاد فكرة الدولة .

وقد سبق أن ألمعنا إلى بعض تلك العوامل وهى : الزعماء ، وحملات الصيد ، والجماعات البوليسية ، والملكية الفردية ، والحرب ، والرق ، والوظائف الحكومية التى تتعلق بحفظ الامن وصيانة النظام ، والمراتب والطبقات الاجتماعية . وقد نتج عن تمازج كثير من هـذه الأوضاع أنواع مختلفة من هيئات الحكم عند مختلف الجماعات [١]

الحكومة الاقطاعية : وهنالك عنصر آخر قوى يؤدى إلى نشوء الحكومة . ذلك هو نمو السلطة وتركزها فى يد مزارع فرد فى مجتمع تعمه ثقافة موحدة متماثلة . إذ لابد أن يمارس الملاك الكبير لمساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ، مع ما له من خدم وخول وعبيد وأتباع وحواشى أو عيال ، سلطة الحكم فيهم ، وهؤلاء الملاك يصبحون مع الزمن زعماء أو سادة يبسطون سلطانهم على أملاكهم ومن فيها خلال أزمان ساد فيها السلب والنهب وأعمال القرصنة وأخذ الثأر على نطاق واسع . وقد يقهر زعيم زعيماً آخر مماثلا له فى الحول والقوة ويفرض عليه إتاوة يستخدم بعضها فى إعالة عدد مناسب من المحاربين . وقد حدث بمرور الزمن أن اتحدت المقاطعات واندمجت فى إقليم واحد على الوجه الذى يُحدث التنافس الصناعى الاتحادَ فى الشركات الاحتكارية الكبرى . فتوسيع مقاطعات المزارع المحارب أنتج الحكومة الى حد بعيد . وبعد زمن طويل من هـذه الأحداث ظهر الى الوجود ملك فرد يتمتع بالمُـلك فى إقليم واسع وراثة ، واصبحت صلة الزعماء الاقطاعيين به صلة المولى بسيده .

ولم تقتصر هـذه العملية على أوروبا فحسب ، بل إن أنظمة مماثلة لها قامت فى اليابان والصين والهند وآسيا الصغرى : ولعل من الطريف أن

---

١ - Robert Lowie , Origin of the State

تبين هنا أن النظام الاقطاعى ساد بين الشعوب التى لم تعرف الكتابة فى بيرو والمكسيك وأفريقيا . إن بداية النظم الاقطاعية وجــدت عند الشعوب البدائية فى كل مكان توجد فيه الملكية الفردية بشكل واسع . ذلك لأن حقوق الزعيم تؤدّى اليه من محصولات الأرض أى على أساس الدفع عينا . ويوجد عند تلك الشعوب فى تلك الأماكن فروق طبيعية بين الأغنياء أو الأرستوقراطيين ، وبين عامة الشعب . ويقول الباحثون : إنهم لم يتبينوا وجود شروط الحماية — أى حماية الزعيم لأتباعه — فى حالة الحرب فى كل الحالات التى توصلوا لبحثها . وإنما تبين لهم وجود فكرة ولاء واخلاص التابع لزعيمه وسيده متأصلة فى نفوس تلك الجماعات . وانعدام شرط الحماية ووجود عنصر الولاء والاخلاص عند الأتباع من جمهرة الناس ، كانا عاملين هامين فى قيام تلك الصلة الحكومية الاقتصادية .

ان انهيار النظام الاقطاعى فى أوروبا الغربية ، وقيام الحركات القومية على أنقاضه قد وفّته كتب التاريخ التى اختصت بذلك العهد حقه بحثا وتفصيلا فقد استغرق اتحاد قبائل مختلفة اللغة واللهجات فى دولة كبيرة زمنا طويلا ، ولعب إدخال عنصر النقود الى الميدان الاقتصادى دورا مهما فى هذا التغيير ، ذلك لأن تحصيل الضرائب بالنقود من مساحات واسعة أيسرُ كثيرا من تحصيلها بكمية من الحاصلات كما كان التعامل فى عهد الاقطاع . وقد كان لاستخدام مسحوق البارود بعض التأثير فى أسلوب الحماية والدفاع . وكذلك كان لتحسن وسائل النقل تأثير كبير فى توسيع مساحة مقاطعات الحكومة وتكاثر الجماعات ، وكان لتقدم الثقافة والعلوم تأثير فى انهيار النظام الاقطاعى .

إن التنازع والتناحر بين زعماء الاقطاع المحليين لم ينتج دائما وضع مقدرات الحكم فى يد ملك واحد . ففى بعض الأحيان اتفق الزعماء على

إقامة حكومة اتحادية . مثال ذلك أن هنود أمريكا الشمالية الشرقية أسسوا اتحاداً انتظم شعوباً وقبائل كثيرة . وأسس زعماء (ايسلندا) مجمعا لهم بغير ملك ينضمون تحت لوائه أسموه (التينج) كانوا يبحثون فيه المسائل التى تتعلق بهم جميعا .

دويلات المدن : انحصرت الحكومات التى تحدثنا عنها قبلا فى القرى والمقاطعات الزراعية ولكنه وجد فى الأيام القديمة مدن كبيرة شمل نفوذها المناطق التى تحيط بها وسميت دويلات المدن . ومن تلك المدن ما امتد نفوذه الى مناطق بعيدة عنها جبت منها الإتاوات ولا سيما حيث كانت وسائل النقل البرى والبحرى مساعدة على ذلك . ولعل أثينا وروما القديمتين أصدق مثالين على هذا النوع من الحكم . واذا كانت المنطقة واسعة الأرجاء مترامية الأطراف سُميت دولها إمبراطوريات ، ومن هذا النوع كانت فارس ومصر وآشور وروما . لقد نشأت دويلات المدن ، على الغالب ، على الطرق التجارية فنمت وتقدم العمران فيها بسبب التجارة . ولم تكن الأموال فى تلك المدن مؤلفة من الأراضى ، بل كانت البضائع والسلع المكدَّسة فيها هى جوهر الغنى ومظهر الثراء . والأرض كما نعلم هى ضرب مستقر من المال يبقى لأجيال متعددة ويتلاءم مع مبادئ الوراثة .

والأرض أيضا صالحة لاعالة الأتباع والجيوش ، وتصلح للحماية إذا كانت القلاع مشيدة عليها . وكان نشوء طبقة النبلاء بالوراثة التطور المنطقى المنتظر بين طبقة الإقطاعيين والأرستقراطية . أما فى المدن حيث كانت الحياة الاقتصادية أقل استقراراً فقد كان مبدأ الوراثة قلقا دائما . وكان نظام الأسرة والقرابة فى المدن أضعف منه فى المناطق الزراعية . وكان التحمس لمبدأ الوراثة بعيد الوقوع . أضف إلى ذلك أن الحياة الاجتماعية والسياسية فى المدن كانت دائما عرضة للتغير بسبب الآراء والافكار الجديدة

التى تنتقل فى كل يوم مع التجار الذين يفدون اليها من الأصقاع البعيدة . ولقد أصبح أهل الثراء والغنى والمحاربون المشهورون حكاما فى دويلات المدن ، ونشأت فى الوقت عينه فكرة الجنسية ، ثم ظهرت النزعات الديمقراطية للوجود . وقد جلبت الأموال الضرورية لحياة المدينة من التجار ، مع أن جيوش الدويلات وأساطيلها قهرت البلاد المجاورة لها وجبت منها الاتاوات . ولما كان السكان هم الذين يدفعون الأموال للدولة وكان مصير هؤلاء مرتبطاً بالدولة ، فقد ساهموا الى حد بعيد فى حياة مدينتهم . فكانت هذه المساهمة هى نشأة الديمقراطية الأولى

من الملكية الى البرلمان : لقد ارتبط الملوك والقياصرة والأباطرة باقتصاديات الأرض ، ولكنهم عاشوا زمنا فى إمبراطوريات كالامبراطورية الرومانية ، وفى أوائل عهد الرأسمالية . وحدث أن استبدلت الملكيات أحيانا ، وأقيمت جمهوريات يديرها موظفون منتخبون دون أن يكون على رأسهم ملك ، كما وقع فى فرنسا . وحدث أن احتفظ بالملكية ولكن سلطانها حدد كما وقع فى إنجلترا . وقد توصل البرلمان الى هذه النتيجة فانتزع السلطة من الملك بتحكمه فى مصدر الأموال وهو الضرائب ، لأنه لا بد من النقود لادارة الحكومة وتأييد الملك وحاشيته الكبيرة ، وكان الملك فى العهود السابقة يحصل على الأموال مما يجبيه من النبلاء الاقطاعيين ومما يبيعه من الامتيازات والرتب . فلما بدأ عهد الرأسمالية ظهرت للوجود مصادر جديدة للمال كما ظهرت طبقات جديدة طامعة فى الحكم من الأغنياء . وأصبحت مشكلة الملك لا تنحصر فى حصوله على قسم من الحاصلات الزراعية فحسب ، بل وفى أن يحصل على النقود أيضا . فنشأ نظام الضرائب ونشأ معه البرلمان . فتمكن رجال الأعمال من تقييد سلطات الملك بدستور ، والسيطرة على التصرف فى الأموال بموجب تشريعات خاصة .

الديمقراطيات : لم تنشأ الديمقراطيات دائما إثر إنهيار سلطات الملوك . فقد انتقلت السلطة على الغالب الى أرباب الاملاك خالصة لهم من دون الشعب أى خالصة لهم من دون جميع المواطنين البالغين سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ، غير أنه بالرغم من كل ذلك قد تم انتقال السلطة الى الشعب مباشرة . كما وقع فى سنة ١٧٩٣ على أثر اندلاع الثورة الافرنسية . ولم يكن فى طاقة جمهرة الشعب أن يحتفظوا بالسلطات التى قبضوا عليها بأيديهم ، فكانت النتيجة أن قام نابليون وخدع الشعب ونصب نفسه إمبراطورا . أما قيام طبقات الشعب بأعباء الحكم ، وإدارة شؤون الدولة ، فقد نشأ فى القرن الثامن عشر من المبادىء الحرة المتطرفة جدا . كان الملوك فى ذلك الزمن يدّعون أنهم يحكمون بحق إلهى ، وكانوا يتصرفون بجميع شؤون الدولة ، وكانت الحكومة مكسوة بدثار من الأرستقراطية . ولعل الصورة الواضحة التى طبعها فى مخيلة المؤرخين المعاصرين بلاط لويس الرابع عشر فى فرنسا ابرز مثال واضح لها . هكذا كان جو الحكومة . أما تحويل الحكم الى طبقة العمال والطبقة الوسطى فقد اعتبر من الأفكار الثورية . كان المواطنون الأحرار الذين ساهموا فى إدارة دفة الحكومة ورسم سياستها أقلية ضئيلة من السكان البالغين فى أثينا . وكان أفلاطون وسقراط كلاهما خصمين للديموقراطية . أما فى روما حيث كانت الحكومة جمهورية الى حين فلم تَسُدْ الديموقراطية فى أصول الحكم والسياسة . وفى العصر الحديث نمت الديموقراطيه وترعرعت بسبب انتشار التعليم وارتقاء مستوى المعيشة ، فأصبحت جمهرة الشعوب — نتيجة لانتشار التعليم العام وللأجور العالية التى يتقاضاها العمال — تنتخب مرشحيها عن تبصر وإدراك ، وتُساهم فى دفع الضرائب بنصيب أعظم .

لقد نشأت الديموقراطية لكى تنزع السلطة من أيدى طبقات الأغنياء

الأرستقراطيين وتضعها فى أيدى الشعب . وقد دل الاختبار على أن الديموقراطية أكثر ما تنجح فى مجتمع أفراده متجانسون من حيث كونهم جميعا من طبقة اجتماعية واحدة ، وأكثر ما تنجح أيضا عندما تكون المسائل الحكومية المعروضة على جمهرة الشعب بسيطة كل البساطة خالية من شوائب التعقيد .

غير أن المجتمع يتغير يوما عن يوم ، وأفراد الشعب ليسوا من طبقة اجتماعية واحدة ، ولا تجمعهم مرتبة ثقافية واحدة ، ولا يصدرون فى الحياة عن مشرب واحد ، ولا يعملون لغاية واحدة ، بل لكل امرئ منهم ما نوى ، وفوق كل ذلك فهنالك تباين فى الأعراق والاجناس ، وهنالك جماعات مختلفة المذاهب والاهداف . لم يعد المجتمع منقسما الى مزارعين وتجار فقط : فهنالك العمال الفنيون والعمال العاديون ، وهنالك الزراع فى أراضيهم ، والمزارعون المستأجرون ، وهنالك طبقات أصحاب المهن والحرف ، وهنالك أرباب الملاحة ، والنقل البرى والبحرى والجوى ، وجماعات الاحتكار والمنافع العامة ، وهنالك التجار وأصحاب معامل الصلب والحديد وسائر المعادن ، وهنالك جماعات مصانع الغزل والنسيج والصناعات الكيماوية ، وهنالك أيضا منتخبون ومنتخبات ، وهنالك شرقيون ، وغربيون ، وشماليون وجنوبيون ، وهنالك طبقات ومراتب اجتماعية بين السكان . ولكل من هذه الجماعات ثقافة وتعليم خاص ، وعادات وعرف خاص ، ولا تجمعهم وحدة المذهب والحياة الاجتماعية . من أجل ذلك كان من السهل أن يدب الخلاف بينهم ، وكان من الصعب أن يتوافقوا . أضف الى كل هذا أن الحكومة اليوم تتناول مسائل ونواحى من الحياة أكثر مما كانت تتناول فى الأيام السابقة . كل هذا يجعل تطبيق الديموقراطية اليوم أمرا ليس من الهنات الهينات ، فلم تعد المسائل من الأمور التى يمكن أن تحل بتحسس رغبة الرأى العام التى يبديها الفلاحون والمزارعون

فى اجتماعاتهم فى المضافة أو فى مسجد القرية .

وبدلا من أن يتمتع الشعب بسلطاته المنصوص عليها فى الدساتير ، تدير الأحزاب السياسية شؤون الحكومة للشعب ، ولكن على أن تكون لهم امتيازات شخصية . ولنذهب الآن فى هذا التحليل الى أبعد من ذلك الحد . تتأثر الحكومة الى حد بعيد بمطالب الجماعات وإلحاحها ؛ عليها أن تقوم بأعمال معينة أو أن تمتنع عن تنفيذ أعمال معينة ، من أجل حاجاتها وأغراضها الخاصة . وهذه الجماعات هى - فى الأداة السياسية - الرئيس وحاشيته ، وفى التعريفة الجمركية - رجال الصناعة ، وإذا هبطت أسعار القطن مثلا ، ووجد فى البلاد عرض يزيد على الطلب ، يضغط المزارعون على الحكومه طالبين المساعدة أو الاعفاء من الضرائب . وقد تكون الجماعة التى وحّدت المصلحة بين أفرادها واسعة جدا كما هى الحال عند وقوع الحرب ، فقد تنتظم الجماعات ، زيادة على أصحاب مصانع الذخائر والأسلحة ، الشعب كله . وقد تقوم جماعة للحد من تطرف جماعة أخرى فى مطالبها .

إن المساعى لوضع السلطات التى انتزعت عن الحاكمين بأمرهم والاستغلاليين أدت فى الحقيقة الى أن الشعب الذى يوجه الحكومة فى ممارستها لهذه السلطات يقوم بتنفيذ مآرب الجماعات ذات المصالح الخاصة وكثيرا ما يحدث أن تصبح أغلبية الشعب جماعة كبيرة ذات مصلحة معينة فى أمر من الامور أو شأن من الشؤون ، وتكون هى القوة الكافية التى تقرر مصير المسائل الهامة فى البلاد ، وبذلك تتحكم بمصالح الفئات والشيع الخاصة . نخلص من هذا الى أنه لا يمكن لكل من « جماعات المصلحة » وفئاتها أن تتسلط بنفوذها على الحكومة فى كل المسائل الى أجل غير محدود .

ماذا على الحكومات أن تعمل : إن مسألة من الذى يدير الحكومة ليست المسألة السياسية الوحيدة الهامة اليوم ، فهنالك مسألة تماثلها من حيث الصعوبة والمنزلة الدقيقة ، وهى ماذا على الحكومة أن تعمل ؟ لقد اعتبر أتباع مذهب « حرية العمل [1] » أن الحكومة التى تدير المصالح على الأقل ، هى الحكومة الصالحة للحكم . واعتبر هؤلاء المحاكم والبوليس والجيش والأسطول وبعض المصالح الأخرى القليلة العدد كافية لتدار من قبل الحكومة . وبما أن الحكومة كانت فى القديم خاضعة لسيطرة الحاكمين بأمرهم فان هذا الرأى يبدو طبيعيا . ولعل سببا آخر أدى الى هذا الاتجاه : ذلك أن أرباب الصناعات الناشئة كانوا يرغبون فى أن يتحرروا من ضغط الحكومة .

ومهما يكن من أمر فان ما تقوم به الحكومة من الأعمال — إن قلّ أو كثر — يتوقف على الظروف والأحوال . إن وظائف الحكومة — شأنها شأن الأدب والأخلاق الشعبية — تتغير حينا بعد حين . فقد كانت تلك الوظائف فى أوائل القرن التاسع عشر قليلة جدا ، وكان أبرزها حفظ الأمن والذود عن الوطن ، ولكن تلك الوظائف أصبحت كثيرة فى أوائل القرن العشرين .

الحكومة وإتقان العمل : من أسباب المعارضة فى توسيع نطاق أعمال الحكومة أمر يتعلق باتقان العمل . ويعدد المعارضون أدلة كثيرة على تفشى الفساد والتلاعب والخراب فى المصالح الحكومية فى كثير من بلدان العالم .

ويدعى المعارضون أن موظفى الحكومة لا يقومون بعملهم باخلاص ومهارة وذمة كما يقوم موظفو الشركات والمصانع بأعمالهم بوجه عام . ولعل أبلغ

---

١ — Laissez Faire.

رد على هذه الدعوى ما قام به موظفو الحكومة من جليل الأعمال فى بناء السدود والخزانات والسكك الحديدية وغيرها . وإتقان الاعمال التى تقوم بها الحكومات بوجه عام ، وما كانت تقوم بها الحكومة الالمانية خير دليل على أن موظفى الحكومة يستطيعون القيام بأدق الأعمال وأجلها باخلاص ومهارة عظيمة . وقد يحتاج موظفو الحكومة فى بعض أنحاء العالم الى خبرة وزمن طويل للتمرن على جليل الأعمال وممارستها .

الحكومة والتطور الاجتماعى : بيَّنا أن وظيفة الديموقراطية فى عالم معقد وعند حكومة لها وظائف كثيرة ليست أمرا هينا . أضف الى ذلك الصعوبات الناجمة عن التطور الاجتماعى . ان التطور يعنى إضافة مشاكل جديدة . والمشاكل التى تحدث سريعا تستدعى حلا سريعا . إن الديموقراطية تتلاءم مع طبيعة التروى والتبصر فى الأعمال ، وينجح الآخذون بها متى كان لديهم وقت كاف لتعليم الشعب وتبسيط المسائل التى ستواجهه الفينة بعد الفينة .

ومن المعترف به أن الأصول الديموقراطية التى تتضمن الأبطاء فى سير معاملات التصميم والمناقشة والموافقة تطرح جانبا ويوقف العمل بها مؤقتا فى أثناء الأزمات ؛ كاعلان حالة الحرب وهبوط الأسعار وتدهور الحالة التجارية - فتتسلم القوة التنفيذية السلطة التى تحتاج اليها أو تستولى عليها لتدير الأعمال بالسرعة المقتضاة لانقاذ الموقف . ولعل السلطات التى تمتَّع بها ابراهام لنكولن إبان الحرب الأهلية الامريكية هى خير مثال على هذه الحال . لقد أظهر المؤرخون لنكولن بمظهر الديموقراطى العظيم ، ذلك لانه صاحب مذهب « حكومة الشعب ، من الشعب ، ومن أجل الشعب » . وقد كانت الميول المغروسة فى قرارة نفسه ديموقراطية ولا شك ، ولكن الظروف والأحوال حملته على أن يمارس سلطات استبدادية أكثر من أى

رئيس آخر للولايات المتحدة . ولقد كان وودرو ويلسون ، اذا ما قيس بلنكولن - ديكتاتورا معتدلا فى أمريكا إبان الحرب العالمية الأولى ، فقد رجع الرئيس ويلسون الى مجلس الأمة كلما رأى ضرورة حصوله على سلطات جديدة بسبب الحرب . أما لنكولن فلم يطلب إلا بعضا من السلطات التى مارسها . فقد سجن ألوفا ممن حامت حولهم الشُّبه دون اللجوء الى سلطان القانون ، ودون أن توجه اليهم أية تهمة . وأعلن الاحكام العرفية ، وأوقف العمل بالأمر الذى تصدره المحاكم عادة لاخلاء سبيل من يسجن بدون حق [١] ، وعطل بعض الصحف الكبيرة لأجل غير مسمى ، وأقام حُراسا مسلحين فى مراكز الانتخابات . ووسع الجيش والبحرية الى حد جاوز به النسب المعينة بالقانون ، وأنفق الأموال العامة دون أن يحصل على تخصيصات من مجلس الأمة ، وأصدر منشور تحرير الرقيق بمرسوم تنفيذى بوصفه القائد العام للجيش . غير أن لنكولن — بالرغم من كل هذا — لم يؤسس حكما ديكتاتوريا لاجل غير معين . فقد واجه الانتخابات العامة فى سنة ١٨٦٤ وكان معرضا لأن يسقط فيها .

ان الحرب ، ولا شك ، لها حكم مخصوص ، فهى تتطلب عملا حازما وسريعا . وقريب منها الانهيار الاقتصادى العام . ولكن فى المجتمعات الحديثة تقع كل يوم مشكلات جديدة هى أشبه ما يكون بالأزمات ، ولما كانت الديموقراطية قد نشأت فى عصر كانت الخطى فيه قصيرة ، والمشكلات الاجتماعية قليلة ومجهولة ومتماثلة فان معداتها تظهر بطيئة فى مجاراة الزمن الحديث . ان الديكتاتوريين يتحركون بسرعة تزيد كثيرا على سرعة حركة المجالس النيابية .

الدول الديكتاتورية : تطورت الديموقراطيات كثيرا منذ الثورة الإفرنسية وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية . والديموقراطية ما

---

١ - Habeas Corpus.

تزال تتغير وتتطور فى هذا العالم المتقلب ، غير أنه قد نشأ فى السنين المتأخرة نوع جديد من الحكومات يسمى فى بعض الأحيان بالديكتاتورية الشعبية . ان الدولة الاشتراكية فى روسيا قد جعلت من أراضيها بلادا صناعية فى وقت قصير يثير الدهشة وفاقا لمنهاج السنوات الخمس ، وقد أقامت الدولة الديكتاتورية الألمانية جهازا للحرب بين عشية وضحاها . وهذه النتائج العظيمة تحمل المرء على دراسة هذا الضرب من الحكومات . ان الديكتاتورية هى فى الواقع تحدٍّ للديموقراطية .

ان الدولة الديكتاتورية ، كما يفهم من هذا التعبير ، هى دولة للحكومة فيها اليد العليا فى جميع الاعمال . وهى حكومة ذات وظائف كثيرة فى أعمال ومصالح كثيرة ، وهى مستبدة فيها جميعا وتشبه « اشتراكية الدولة » عندما تدخل فى مضمار الانتاج . وهنالك من الوجهة العملية بعض وظائف لا يشملها هذا التعبير ، وقد تكون ، أولا تكون ، ملازمة لهذا النوع من الحكومات . وهى :

١ : إبطال التشريع ، ٢ : إحراز الحاكم للسلطات المطلقة ، ٣ : نظام الحزب الواحد ، ٤ : التقليل من الشعب للانتخابات ، ٥ : الحد من الحرية وتقييدها الى مدى بعيد .

ومما يسترعى الانتباه أن هذه السلطات والتدابير تلازم الدول الديموقراطية أيام الحرب : يخول رئيس الدولة ، أو رئيس الوزراء ، السلطات الديكتاتورية ، ويحد من سلطة البرلمان الى حد كبير ، وتنبذ الأحزاب خلافاتها مؤقتا ، وليس الحرب زمناً مناسبا لاجراء الانتخابات ، وتمارس الدولة وظائف كثيرة جديدة تعتبرها ضرورية أو مناسبة لادارة دفة الحرب . إن المانيا ، بعد أن انهارت ديموقراطيتها فى سنة ١٩٣٣ ، أخذت تستعد للحرب فكانت سپارطة الحديثة ، وكذلك إيطاليا فقد تغنت

بالحرب زهاء عشر سنوات ، أما روسيا فقد حاربت جيوشا كثيرة بعد سنة ١٩١٧ ؛ وعندما زال خطر اجتياح أراضيها أخذت تستعد للحروب المقبلة . وتوجد الديكتاتورية اليوم فى الدول التى تستعد للحرب . وقد أصبحت فرنسا وبريطانيا بلادا ديكتاتورية إبان الحروب الأخيرة . وعلى ذلك فالحكومات الديكتاتورية هى حكومات تقوم أيام الحرب . ولكن هل هذه الحكومات هى فى الواقع شىء آخر ؟ وهل إذا وضعت الحروب أوزارها ، وزالت الاشاعات عن قرب وقوع حروب من الوجود ، تُعدِّل هذه الحكومات وظائفها وتعود ثانية الى حظيرة الديموقراطية ؟

يجب أن نتذكر عند الاجابة على هذا السؤال أن الملكيات المطلقة القديمة تشارك الحكومات الديكتاتورية فى كثير من الشئون . فقد كان فى الملكيات القوية حكام من الطغاة ، ولم يكن هنالك تشريع ما ، واذا وجد فقد كان ضعيفا ، ولم تكن الانتخابات موجودة ، وكانت الحرية على الغالب مقيدة . والحقيقة أن روسيا وألمانيا وإيطاليا لم تتذوق الديموقراطية مدة طويلة قبل أن تصبح ديكتاتورية . إن نمو الاتجاهات الديكتاتورية فى هذه البلاد يعتبر فى كثير من الأحيان ارتدادا الى أنواع الحكم القديمة المتأصله فى نفوس السكان . وعلى ذلك فقد يمتد أجل الدول الديكتاتورية الى ما بعد الحروب أو مدة توقع وقوع الحروب .

ومهما يكن من أمر فان الاتجاه فى جميع أنحاء العالم قبل سنة ١٩٢٠ ، كان نحو الديموقراطية . ولعل أسباب ذلك هى التذمر من حكم الديكتاتوريين وانتشار التعليم بين الطبقات الفقيرة وازدياد دخلها ، وتعميم الاقتصاد الرأسمالى . لقد كانت الحكومة الديموقراطية اختراعا جديدا ثبتت صلاحيته للعمل وانتشر من بلاد الى أخرى . فهل يردُّ قيام الدول الديكتاتورية الديموقراطية عن اتجاهاتها ، أم أن وجود هذه الدول ليس إلا انحرافا

مؤقتا عن الاتجاه الديمقراطى ؟ إن الاستعداد للحرب فى البلاد التى لم يزد عمر الديموقراطية فيها على قرن واحد هو حدث يحتم انحرافا مؤقتا عن الديموقراطية ، كما أن الحروب الكبيرة التى تشنها الدول الديموقراطية تؤدى الى الانحراف عن تطبيق النظم الديموقراطية فى الحكم . قد يكون نشوء أوضاع معينة بعد الحرب العالمية الاولى حبذ نشوء الديكتاتوريات .

الحرية فى مقابل التنظيم : ان الصراع بين الديموقراطية والديكتاتورية قد يلخص فى عبارة واحدة هى : « الحرية فى مقابل التنظيم » وقد كان هذا الامر من مسائل الخلاف فى أيام طغاة الإغريق . وكان كذلك من مسائل الخلاف عندما انتزعت لائحة « ماغنا كارتا » من الملك حنا ، ملك انكلترا . وهى من المسائل القائمة اليوم . فلا يمكن إدارة المجتمع أو إدارة الحكومة بغير تنظيم ، ولكن التنظيم يعنى تقييد الحريات . يجب أن ينظم الجيش ويستعد للعمل السريع ، ويجب أن يطيع الجندى الذى قيدت حرياته رؤساءه بلا تردد . ان المشكلات الاجتماعية السائدة اليوم لا تحل إلا بالتنظيم . وتلك المشكلات كثيرة ومن الخطر ارجاء حلها الى آجال طويلة . والحل يقتضى التنظيم المناسب مع أكبر قسط ممكن من الحرية ، يضاف إليها الأهلية للعمل بسرعة ، وسرعة عظيمة .

الحكم الصالح : يبقى أمامنا أن نتساءل ما هو نظام الحكم الصالح للمجتمع البشرى ؟ وهل هنالك نظام أدنى ونظام أعلى للحكم ؟ هنالك اضطراب وتباين كبير بين علماء السياسة والاجتماع فى هذا الموضوع . والواقع أن هذا الاضطراب وهذا التباين هو على أشده بين العلماء ، ولكنه موجود إلى حد أقل بين جمهرة الناس . ولعل ذلك ناتج عن جهل جمهرة الناس بدخائل الأمور ، وعن جهلهم نتائج تحليل العلماء لكل المسائل التى تتعلق بحياة الانسان .

وان الاعتراضات المُنْصبة على استعمال كلمة «تقدم» فى أنظمة الحكم، وملحقاتها «أدنى» و «أعلى» فى أنواعه، هى كما يلى: إن الحكم المطلق والحكم الديموقراطى والحكم الاشتراكى كل منها قد نشأ من طبيعة المحيط الذى يطبق فيه، والبيئة التى ينتشر فيها، ولذلك فمن الخطأ أن يقال إن نوعا من الحكم هو أدنى من الأنواع الأخرى أو أعلى منها، وليس من المنطق أن يعتبر أحد أنواع الحكم هذه «تقدما» فى الحياة الاجتماعية أو ارتدادا الى المبادئ الوحشية القديمة. ولعل ثمة اعتراضاً آخر أسهل من هذا هو أن وجود نوع من الحكم فى بلد ما دليل على صلاحه للمحيط الموجود فيه، هنالك نوع من الحكم فى بلدما، ونوع آخر فى بلد آخر، فلماذا نقول إن أحد النوعين أعلى من الآخر؟

وثمة محاورة أخرى: هى أن التطور فى أصول الحكم وأنواعه يبين لنا تخصصا يؤدى الى الدقة والمهارة فى إيجاد توازن وارتباط بين أصول الحكم وطراز الحياة الاجتماعية. لقد صرح بعض علماء الاجتماع بمثل هذه الآراء. ورفضوا أن يعترفوا بوجود أى معيار لقيم الاوضاع. ومن هؤلاء دوب [1] فقد كتب فى كتاب أصدره سنة ١٩٤٠ ما نصه:

«وعلى هذا المنوال حاول علماء الانثروبولوجيا (علم الانسان) أن ينزعوا فكرة التقدم من فلسفتهم. وهم يرون أن هنالك تغييرا فى أصول الحياة، أو اتجاها نحو إيجاد نظام معقد لحياة الانسان. وليس التغيير أو التعقيد حسنا أو قبيحا، هنالك فروق من حيث الدرجة، ولكن ليست هناك فروق نوعية أو قيمية. إن تاريخ التقدم لا يظهر لنا أى تقدم ما.»

الإصلاح: عندما يجرى الإصلاح فى أساليب الحكم فى المجتمعات البسيطة الثابتة يخضع السكان لمبادئه. أما فى المجتمعات المتغيرة المعقدة ـ كالمجتمع الامريكى أو الفرنسى مثلا ـ فلا يخضع السكان

---

١ - Doob

للاصلاحات الداخلة على أساليب الحكم بسهولة . فالأحوال الجديدة تخلق مشاكل جديدة تفيض عنها الحاجة الى إصلاحات جديدة . حتى ان آراء جديدة قد تنشأ حول المشاكل القديمة . وتنشأ دائما خواطر جديدة نتيجة للمكتشفات والاختراعات الحديثة . وهذه الخواطر تنزع الى التأثير على المجتمع ليتجه نحو تقدير جديد لبعض شؤون الحياة . ويحصل من ذلك شعور بالحاجة الى تغيير أو إصلاح يصيب الأصول القديمة . مثال ذلك : الاصلاحات الكثيرة التى أدخلت على معاملة المعتوهين ، فقد أتى عليهم حين من الدهر اعتبرهم الناس من السحرة فأعدموهم . ثم أتى عليهم دور آخر كانوا يعزلون فيه عن المجتمع وتساء معاملتهم . أما معاملتهم الحالية بالشفقة والرحمة والاعتناء بهم وفاقا لأحدث الأصول العلمية فقد جاءت نتيجة لحركات اصلاحية عنيفة .

تمر حركات الإصلاح على الغالب فى سلسلة من الأدوار على الوجه التالى :

اولا : يعترف عادة عدد محدود من الأفراد بالحاجة الى الإصلاح ، ويعملون من أجل الإصلاح . واذا نجحت دعايتهم يتولد فى نفوس جمهرة الشعب شعور بالحاجة الى التغيير . وفى هذه الحال يوضع منهاج واضح وتقوم هيئة بأعباء تنفيذه . ويتلو ذلك الدور الثانى ، دور التنفيذ ، وتبذل الجهود للضغط على الأفراد والجهات التى تؤثر فى الوضع . فاذا نجحت حركة الإصلاح ، يعتبر منهاجها أساسا للعمل ، ويصبح فى الدور الثالث أساسا لنظام العمل . وفى الوقت نفسه قد يبدو تذمر جديد من أصول الحكم ، وتمر حال طلب الاصلاح بدورة أخرى ، وهكذا دواليك . ولما كانت حركات الإصلاح هى فى الواقع تشبه المخترعات ، الى حد بعيد ، لذلك نجد أنها خاضعة للتجارب التى تخضع لها الاختراعات الاجتماعية . أى ان نجاحها يتوقف على ما إذا كانت تتلاءم مع أصول معيشة جمهرة الشعب ،

وتتمشى مع أذواق المجتمع ، وكانت ممكنة التنفيذ . وكذلك يجب أن تحسب تلك الحركات حسابا لمقاومة أصحاب المصالح الخاصة ، أى لمقاومة الجماعات التى ستصيبها خسائر معينة فيما إذا وقع التغيير .

لقد كان هناك تغيير فى أصول الحكم دائما ، ولكن لم يكن هناك تقدم فيها . وقد وجد فى جميع الأزمان رجال عاديون ، أو فلاسفة ، أو علماء فى الدين لم يقنعوا بنظام الحكم الموجود فى أيامهم فتساءلوا عما هى غاية حياة الانسان ؟ ورغبوا دائما فى أن يخترعوا غرضا غريبا لذلك ، يتمسكون به ويتفق مع مصلحة بنى الانسان . وقد اكتشف بعضهم هذه الغاية فى الأديان السماوية ، وظن البعض أنه يستطيع البحث عنها فى حقائق الطبيعة . ولعل من الأساليب العادية « للدين الطبيعى » الاشارة الى التطور كمظهر من مظاهر الغاية من حياة الانسان . إن تاريخ الحياة — على حد قولهم — يظهر أن الانسان مسير بقضاء وقدر خارجين ، والنتيجة التالية لهذا القول أن على الانسان أن يوكل أمره الى تلك القوة لتهديه سبيل الرشاد فى المستقبل . وفى الوقت نفسه حاول بعض الفلاسفة والعلماء أن يضعوا أصولا للحكم اعتقدوا أنها خير مثال يحتذى للحكومات . فألفوا فى ذلك : أوجدوا مدنا من نسج خيالهم ، ووصفوها بانها « فاضلة » : الحياة فيها لينة ناعمة ، وسكانها يتمتعون بالعيش الرغيد ، وتلبسهم السعادة من الرأس الى أخمص القدم . وقد عرف التاريخ كثيرا من تلك المدن . ورأينا أن نقصر بحثنا على ثلاثة منها ، هى جمهورية افلاطون ، ومدينة الفارابى الفاضلة و (يوتوبيا) سيرتوماس مور . وانك لتقف عليها فى الفصول التالية .

الفصل الثانى

جمهورية أفلاطون

« الجمهورية » هى ترجمة عربية للكلمة اللاتينية « رسپوبليكا [1] » التى ترجم بها شيشرون الكلمة اليونانية « پوليتيا [2] » . عنى افلاطون بهذا الاسم «الدولة» أو « المدينة » أو «الجمهورية» . وأُطلق مجازاً على الروح الفردية فى الانسان .

يرسم كتاب الجمهورية صورة للدولة المثالية ، ولمّا أعيا مؤلفَها العثورُ على تلك الصورة فى الأرض ، وفقد الأمل فى أن يصبح من الممكن اكتشافها فى أيامه ، ولىّ وجهه نحو السماء يبحث عنها علّه يجد هناك أنموذجا لمن يروم أن يراه ، ويبنى نفسه على مثاله . وأما وجود ذلك الأنموذج على الأرض فى الحاضر أو فى المستقبل ، فليس بالأمر المهم فى نظره . وإن لزاما على كل إنسان أن يختار قوانين هذه المدينة المثالية ويطبقها مُعرضا عن كل ما سواها [3] . على أنه يمتنع أن يماثل مجتمع من المجتمعات الدنيوية ملكوت السماوات ، ولكن الشخص الذى تتحلى روحه بالفضيلة قد يبصر ذلك الملكوت فى نفسه .

إن موضوع الجمهورية هو فى الواقع جِماعُ مناحى حياة الانسان الخلقية والسياسية ، وشؤونه الدينية والفلسفية . وإذا حددنا أغراض الكتاب وغاياته بشكل واضح قلنا إنها تتألف من اكتشاف الأسباب

---

١ - Respublica ٢ - Politia ٣ - كتاب الجمهورية - س ٥٩٢
ترجمة الشيخ حنا خباز .

والعوامل التى بها يفضُل العدلُ الظلمَ . نجد فى الكتاب الأول ، ويسميه أفلاطون مقدمة ، أن الحديث يُفضى بالمجتمعين فى بيت « سفاليس » الى المسألة التالية : ما هو العدل ؟ وقد وضع الحضور ، بادئ الأمر ، حدَّين للعدل . الأول : العدل هو مساعدة الأصحاب الأمناء والاضرار بالأعداء الاشرار . والثانى : وجاء به « ثراسيماخس » . هاج ثراسيماخس جدا خلال البحث ، وهمَّ فى عرض الحديث مرارا بمقاطعة المتحاورين ، وأثار اعتراضات شديدة . ولما رفض الحضور الأخذ بأقواله « جمع قواه وانقض عليهم كوحش ضار يتعمد أن يمزقهم إربا ، فأرهبهم صوته عندما صرخ فى وسط الجماعة قائلا : إنما العدل هو منفعة القوىّ وفائدته[1] » . وإن الحكام هم أقوى من المحكومين ، ولذا فان كل حكومة تصوغ الشرائع فى القوالب التى تضمن لها الفوائد وتؤمن لها المنافع . فشرائع الديموقراطيين هى ديموقراطية ، وشرائع الأوتوقراطيين استبدادية . وكأنى بالحكومات تصرّح بأعمالها بأن ما فيه نفعها وفائدتها هو عدل لرعيتها[2] ، وعلى هذا الأساس بررت أثينا وجود امبراطوريتها . وتبنَّى هذه النظرية ثراسيماخس وآخرون كثيرون من معاصريه ، على ما علمناه من الجمهورية . عرض أفلاطون لهذا الرأى كواحد من الآراء الكثيرة التى كانت شائعة فى أيامه ، وغرضه من ذلك أن يستبدل تلك النظرية بنظرية أخرى تكون المثل الأعلى فى السياسة . غير أن سقراط أفسد على ثراسيماخس حجته . مبينا أن كل فنان ـ والحكام فى رأيه هم من أهل الفن ـ يجدّ ويكدح ، ويكافح ويجاهد ، فى سبيل بلوغ حد الكمال ونهايته القصوى لنفسه . والطبيب ، بوصفه طبيبا ، يسعى الى ما فيه خير مريضه ، والحاكم ، بوصفه حاكما ،

---

١ - س ٥٩٢ من الجمهورية .   ٢ - س ٣٣٩ من عين المصدر .

يعمل لما فيه خير رعيته ومصلحتهم . وإن أعظم مكافأة ينالها الحاكم الصالح ، هي أن ينجو من مساوئ حكم مرءوسيه له يوماً ما ، ويظل دائماً بمعزل من شرورهم . ونجد في نهاية الكتاب أن سقراط وثراسيماخس كليهما ، وقفا من هذه المسألة موقفين متباينين ، فلم يستطع ثراسيماخس أن يَعزّ سقراط فى الخطاب ويغلبه فى الخصومة والمحاجة ، وكان قصده أن يتبين هل العدل فضيلة أم رذيلة ؟ وهل هو حكمة أم جهالة ؟ ثم تطوَّرت شجون الحديث وانحرف اتجاه الجدل الى مسألة جديدة هى : هل الظلم والاعتداء أنفع من العدل ؟ فكان لزاما على سقراط أن يخرج على حدود المسألة الأولى ويلج فى البحث الجديد . ولكنه خرج من البحث والجدل خالى الوفاض لا يعرف شيئا [1] .

حاول سقراط الانسحاب من الميدان متمتما بهذه الكلمات : « لما قلت ما قلت خِلت أننا انتهينا من المباحثة . الظاهر أننا لم نتجاوز بعدُ مقدمة القول وديباجته » . ذلك لأن غلوكون — شقيق افلاطون — رفض أن يدع سقراط وشأنه ، وأكد له أن الكثيرين من الناس هم على غير رأيه ، إذ يرون أن العدل من الأمور المزعجة ، فهو فى ذاته مكروه ومشنوء ، وإنما يطلبه الناس رَغَباً منهم فى الحصول على المكافئات المادية ، والشهرة الطيبة ، وحسن الصيت الذائع [2] . ويستمر غلوكون فى حديثه فيقترح أن يمتدح الظلم ، ويطنب فى إيثار حياة المعتدين وتفضيلها على حياة العادلين النزيهين ، كيما يثير حفيظة سقراط فينقُض حججه وآراءه ويبين أن العدلَ خير من الظلم والاعتداء . رسم غلوكون صورة للرجل العادل ، الذى يجهل الناسُ حقيقةَ أمره : إن هذا الشخص إذا اتهم فى أمر يعذَّب ويوثق بالأغلال

---

١ - س ٣٥٤ عين المصدر .   ٢ - س ٣٥٨ عين المصدر .

وتصبُّ عليه أسواط العذاب ، ويذوق ألوانا من الذل والهوان ثم يصلب .
أما من اشتهر كذبا ومَيْنا بالعدل فيتبوأ أرفع المناصب وينعم بالعيش الرغد
ويتخذ لنفسه زوجا يختارها بمحض مشيئته وحسن اختياره من بين فضليات
النساء ، ويظل يرفل فى ثياب السعادة ما دامَ فى هذا الوجود . وقبل أن
يتقدم سقراط لنقض ما أبرمه غلوكون اذا بأديمنتس ، أخى غلوكون ،
يتصدَّى للإجابة ، ويبسط الدليل تلو الدليل ويقيم الحجة على تأييد العدل
والثناء عليه . قال : إن الاشتهار بالعدل يؤول بالانسان إلى الفوز برضاء
الآلهة فوزاً ينيله سعادات أبدية لا ينضب معينها تُضفيها عليه . وعليك يا
سقراط أن « لا تكتفى بأن تبرهن لنا أن العدل خير من الظلم والاعتداء
فحسب ليس إلا ، وإنما نرى لزاما عليك أيضا ، أن تصور لنا تأثير كل من
العدل والظلم فى نفسى صاحبها وكيف أن أحدهما خير وبركة ، والثانى شر
وشآمة ، سواء أعرف الناس أمرهما أم ظل ذلك سرا خفيا . إننا لم نشهد
أحداً من الأساتذة الذين ادَّعوا نصرة العدل يتقدم شوطاً ليرينا « أن الظلم
والاعتداء هما أقتل سُم يفتك بجسم الانسان ، وأن العدل هو أطيب
البركات [1] »

والمسألة المطروحة للبحث أمامنا الآن هى : « كيف كان العدل خيراً
من الظلم والاعتداء ؟ » وجواب هذه المسألة هو قوام المحاورة بأكملها . قال
سقراط « لقد قدرت مواهب غلوكون وأديمنتس ، كليهما ، وأجللتهما ،
وخاطبتهما بقولى : أجدنى كلما زدت بكما ثقة ، ازددت حيرة فى أى الأبواب
أطرق لأتصرَّف بهذا الموضوع التصرف اللائق المستساغ . ولست أجد
السبيل لمساعدتكما . وان عجزى وتقصيرى بادِيان فقد رفضتما ما قلته
لثراسيماخس ، فى محاولتى إثبات أفضلية العدل على الظلم والاعتداء . ولكن

---

١ - س ٣٦٧ من عين المصدر .

مع كل هذه الاعتبارات لا يمكنني أن أحمل وزر سماعي بالعدل يمتهن . إنني لن أخور ولن تنحلّ عزيمتي فأتخلى عن نُصرة العدل وفيّ نسمة حياة . إن من الحزم لي أن أنصر العدل بما أوتيت من حول وقوة » .

والعدلُ ، عدلان . عدلٌ في الفرد ، وعدل في الدولة . وقد رأى سقراط أن من حسن الاسلوب أن يبحث أولا في العدل في الدولة ، وبعدئذ يطبق نتائج بحثه على العدل في الفرد ، فأخذ يتتبع نشأة الدولة التدريجية . قال : إنني أرى أن الدولة تنشأ لعجز الفرد عن سدّ حاجة نفسه بنفسه ، وافتقاره إلى معونة الآخرين . ولما كان كل إنسان محتاجا إلى الاعتماد على معاونة الأغيار في سدّ حاجاته ، وكانت حاجات كل إنسان كثيرة لا تقع تحت حصر ، لزم أن يتجمع عدد أجزل منا ، من صحب ومساعدين ، في مستقر واحد يعيشون فيه ، وقد أطلقنا على ذلك المجتمع اسم « مدينة » أو « دولة » . ونواة كل مدينة التي تنمو منها هي أربعة أو خمسة من الرجال ، يزداد عددهم تدريجيا ويتكاثرون إلى أن يبلغ سكان المدينة عدداً غير معين من الناس ، يتخصص كل منهم في فن أو مهنة أو حرفة معينة ويكون من بينهم الحكام وهم حراس المدينة . ويجب أن يتوفر في الحكام خصلتان : عليهم أن يكونوا وُدَعاءَ لا أفظاظا ولا غلاظ القلوب مع أصحابهم ، ويجب أن تتوفر فيهم المؤهلات والمزايا العقلية التي تحرّك في نفوسهم روح الهمة والحزم ، والقوة والحماسة . وقد يبدو أن هاتين الخصلتين متضادتان متباينتان . ولكن يُلاحظ وجودهما معا في كثير من الحيوانات . إنهما توجدان معا في الكلب الأصيل الذي يشبه إلى حدّ بعيد حكامنا من حيث الصفات الواجبة للحراسة . يجب أن يكون كل من الكلب والحاكم متنبها يقظا حذرا كيما يتمكن من اكتشاف مواقع العدو ، وأن يكون كل منهما بطاشا ضاريا في نضاله عند الالتحام مع العدو والاتصال

به . والكلب المعلَّم يثور غضبه ويكشر عن أنيابه أمام كل انسان غريب يشاهده حتى ولو لم يلق منه إساءةً أو ضررا . واذا قابل شخصا يعرفه يتحبب اليه ويحرّك ذنبه مظهرا كل إشارات الرفق والدعة حتى ولو لم يلق من ذلك الشخص معاملة واحدة حسنة . إن هذه الفطرة فى الكلب حكيمة جدا . إنها ظاهرة فلسفية حقيقية وهى رَبْطُه الصداقة والعداء بمعرفته هذا وجهله ذاك . وكذلك نشاهد الانسان : فاذا أحسن لأهله ، وأبدى الوداعة لذويه ، وألان جانبه لأقربائه من أصول وفروع وحواشى ، كان مثالا عاليا للمعرفة الصحيحة ، متحليا بأخلاق الفلاسفة . وعلى هذا فان الحاكم الكفء — فى عرفنا — هو الذى يُعِدُّ مواهبه ، ويؤهل نفسه للسير قُدُما نحو الكمال ، وهو فلسفى النزعة ، عظيم الحماسة ، سريع التنفيذ ، شديد البأس ، قوىّ الشكيمة والمراس .

تلك هى صفات الحكام ومؤهلاتهم الفطرية ! فكيف نُربيهم ونهذّبهم لنُعدَّهم لتحمل أعباء الحكم ؟ قد لا نجد ثقافة أليق بهم ، وأفضل لهم من الجمناستيك للجسد ، ومن الموسيقى للعقل . وجلىّ أن الشعر والأدب بوجه عام يدخلان فى الموسيقى . ولكن علينا هنا أن نتمسك بهذا التحفظ . يجب أن لا يؤذن للأولاد بأن يسمعوا كل أنواع الأساطير التى فاضت بها قرائح الشعراء . بل على الأمهات والمربيات أن تختار لهم أجمل الأساطير وتقصها عليهم . ولا يحسن أن نخدش آذان الأولاد بالحكايات الخرافية التى تصوّر الآلهة وهم يشهرون الحروب بعضهم على بعض ، ويكيد بعضهم لبعض . فتلك هى ترهات لا تتصل بالحقيقة بوشيجة ما من قريب أو من بعيد . وإذا كان الحكام يعتبرون النزاع والتباغض فيما بينهم لأسباب تافهة ، أمراً خسيسا ، فان أخسَّ من هذا وأعيب منه ، أن تُنقل إلى أولئك الأطفال الأبرياء أخبار تلك المنازعات والمكايد وما يلازمها من أحقاد وضغائن ، وأن تطرح أمامهم صور القتال بين الأبطال والآلهة وبين أقاربهم وذويهم . تلك

الصور التى لم تعدُ أن تكون من نَسْج خيال الشعراء وتلفيقاتهم المزوَّقة. إنه عيب وحرام أن يبغض المتمدن أخاه المتمدن أو يحاربه ، إن ذلك عمل غير صالح ، وإنه عمل غير مقدس ، ولا يضطلع به أحد من أبناء الآلهة . تلك هى الصيغة التى يجب أن تتلى بها الأساطير المختارة على أسماع أولادنا فى زمن الحداثة . وذلك هو القيد الذى يجب على الشعراء التزامه فى صوغ منظوماتهم [١]

إن على مؤسسى الدولة أن يعرفوا الصيغة التى يجب أن يلتزمها الشعراء فى أساطيرهم ، وإن عليهم أن يحظروا على أولئك الفنانين تجاوز الحد فى ذلك . وما دمنا نهدف إلى إنشاء أجيال من شباننا على الشجاعة والبطولة ، يجب علينا أن نحررهم من مخاوف الموت ، لأنه لا يُتوقع أن يكون أحد شجاعا والمخاوف مستولية على لبه ولبابه . ويجب أن نحذف من الوجود كل الأسماء المرعبة المخيفة المتعلقة بوصف العالم الآخر وصفا مرهبا شنيعا ، لئلا نهزّ أعصاب حكامنا ونفزعهم فتفتر عزائمهم ويتخنثون الى حد بعيد . ثم علينا أن نحذف من مناهج التعليم عويل مشاهير الابطال ونواحهم وندبهم ليربأ المرشحون للحكم بأنفسهم أن يكونوا نائحين ونادبين [٢] . اننا نجد فى كل الفنون على السواء — ما عدا فن الأدب — أن الايقاع واللحن يستقران فى أعماق النفوس ويتأصلان فيها ، ونجد النقش والحياكة والتطريز والبناء والصناعات المختلفة الأخرى ذات الآلات المتنوعة تترك آثاراً حسنة فى النفوس ، فاذا توخينا أن نهيء لأولادنا السبيل ، ونعبِّد أمامهم الطريق ، لكى يكتشفوا ، بقوة عبقرياتهم ، آثار الجودة والجمال فى تلك الفنون ، ينشأ أولئك الاولاد نشأة صحيحة « صحية » يتشربون روح

---

١ - س ٣٨٧ من عين المصدر .   ٢ - س ٣٨٧ عين المصدر .

الصلاح من كل مورد تفيض عنه آيات الفنون ، ويتأثر سمعهم وأبصارهم بها كما لو كانت نسمات هبَّت من مناطق طاهرة ، فتؤهّلهم منذ حداثتهم ـ دون أن يشعروا بذلك ـ لأن يقدّروا رجـــال العقل الحقيق ويحبوهم ، ولأن يتمثّلوا بهم فى الامتثال لأحكام العقل الخالص [١]

والأمر عـلى ما قال أفلاطون ، فى كتاب آخر غـير الجمهورية : « إن التربية هى أن تبغض ما يستحق البغض ، وتحبّ ما يستحق الحبّ [٢] » . إن لتهذيب الموسيقى للنفوس شأنا خارقا ، فمن حسنت ثقافته الموسيقية كان له نظر ثاقب فى اكتشاف هفوات الفن وفساد الطبيعة . إن غاية الموسيقى يجب أن تنتهى الى محبة الجميل [٣] . وقد علمنا من كتاب آخـــر لافلاطون هو « فيزيو [٤] » أن الفلسفة هى أجلّ أنواع الموسيقى . وقد نقلنا هنا من كتاب الجمهورية أن الدّعة هى من خواص الخلق الفلسفى ، لذلك فان رقة الروح ، وحبّ الجمال ، وحب الحكمة هى المزايا الثلاث للثقافة التى تعنى بمعالجة عقول التلاميذ وتجعل نفوسهم زكية صالحة .

أما ممارسة الجمناستيك فيجب أن تبدأ ، وشأنها فى ذلك شأن الموسيقى ، منذ نعومة الأظفار ، ويُستمرّ فيها مـــدى الحياة . ويجب أن تكون تلك الممارسة بسيطة لأن البساطة فى الجمناز تولّـد صحة ، كما أنها تولّـد — فى الموسيقى — العفاف . ويجب أن نتجنب كل استرسال فى تناول الأطعمة ، وأن نفضل التمتع بالصحة الطبيعية عـــلى التخمة من الأطعمة الشهية المصحوبة بأنواع شتى من الأدوية والعقاقير الطبية .

---

١ ـ س ٤٠١ عين المصدر
٢ ـ كتاب القوانين لأفلاطون
٣ ـ كتاب افلاطون الموسوم « سيمبوزيوم » Symposium
٤ ـ Phaedo

إن التمرينات العسكرية — فى رأى أفلاطون — أحسن وأبسط الرياضات الجسدية . ولا يغربنّ عن البال أن الغاية من الموسيقى والجمناز ، على السواء ، هى صلاح الروح لا الجسد ، وتربيتها على التعلق بفضائل الأمور . إن الذين مارسوا الجمناز وقصروا تربيتهم عليه ، أصبحوا غلاظا شدادا خشنى الطباع الى حدّ بعيد جدا . أما الذين اكتفوا بالموسيقى دون سواها فقد صاروا على حد كبير من النعومة ، واللين ، وعيش الرخاء ، والميوعة . إن الانسان ، « حين يسلم نفسه للموسيقى ، ويقبل أن تفيض على نفسه ، عن طريق الأذن ، سيول الأنغام الشجية البديعة ، ويقضى الحياة مرحا طروبا بالألحان هائما بها » ، تلين عريكته ويهدأ طبعه ، ويميل إلى فعل الخير ، مهما يكن فيه من النزق والقوة الكامنة . وإذا ثابر الانسان على الموسيقى منذ طفولته أذابت ما فيه من نزق وغضب وحزم ، وصيرته محاربا رخواً حاله كحال منيلاوس الذى صوّرته لنا الإلياذة . ومن الناحية الأخرى إذا واظب الانسان على الجمناز وصرف جهدا كبيرا فى سبيل التمكن من حركاته ، وسلك سبيل المترفين فى حياته وأعرض بكل جوارحه عن الموسيقى والفلسفة ، حينئذ توحى اليه قوته البدنية الاعتداد بالنفس والغرور بشجاعته ، فينفر من البحث والطلب ، ويهجر استعمال العقل ، ويعمد إلى حل مشاكله بالغلظة والالتجاء إلى القوة كما يفعل الوحش الضارى ، ويحيا حياة يعوزها الاتزان فى التصرفات ، مشوهة قلقة لا جمال فيها . لا بد من التوفيق بين الموسيقى والجمناز لاصلاح النفس والجسد معا [١]

والآن ينبغى أن يختبر هؤلاء الناس الذين تربّوا على هذا الوجه ، ونشأوا على هذه السنن : ويكون اختبارهم بطرق وأساليب متنوعة تؤدى

---

١ — س ٤١١ عين المصدر

إلى إظهار قوة مقاومتهم للاغراء. يُمتحنون — ولا امتحان الذهب بالنار — لنرى أُصْلبةٌ أعوادهم فى كل الأحوال فلا يخدعهم التدجيل؟ أتثبت كياسة تصرفهم وحسن سياستهم لأنفسهم وللموسيقى التى ثقفوها؟ هل يبرهنون دائما على تمسكهم بقواعد اللحن والايقاع فى كل الحوادث؟ هل يعملون جهدهم ليكونوا أعظم النافعين المخلصين لأنفسهم وللدولة؟ فمن اجتاز الامتحان، المرة تلو المرة، حدثا وشابا وكهلا، وخرج من كور الاختبار سليما، فهو الذى يُختار حاكما ومديرا، ويكرم فى حياته، وتحترم ذكراه بعد موته. والشبان الذين دعوناهم الساعة — حكاما — نسميهم «مساعدين» وتتألف وظائفهم من تنفيذ قرارات الحكام[1]. وينبغى أن نولى المحافظة على المستوى العالى فى طبقة الحكام أشد عنايتنا. فاذا وُلد لعامل أولادٌ أثبت الاختبار صلاحهم لوظائف الحكم ثُقِّفوا ورفعوا إلى منصة الأحكام، وعُينوا حكاما ومساعدين. وعلى النقيض من هذا الأمر إذا وُلد من أسرة الحكام أولاد ليست فيهم القابلية للقيام بأعباء الحكم فلا ينبغى أن تأخذ ولاةَ الأمور بهم رأفةٌ بل عليهم أن يضعوهم فى المقام الذى يتفق مع جبلاّتهم، ويقصوهم الى من دونهم من الطبقات ليكونوا زرّاعا أو عمّالا. إن كيان الدولة وعظمتها تتوقف على هذا الأمر. وعلى الحكام أن يحيطوا أنفسهم دائما بأصدق الضمانات، وهو التهذيب الحسن، لئلا تنطلق الكلاب التى ربوها لحراسة القطيع، وتهجم على الأغنام — لجوعها ونهمها — فتمزقها بأنيابها، وتصبح ذئابا فاتكة، لا كلابا حارسة. أما بيوت الحكام فينبغى أن تليق بمراكزهم كحكام كاملين، على أن لا تؤدى بهم إلى الاضرار بالأغيار.

أما وقد تم إنشاء مدينتنا، وبدا حسن تنظيمها، وهى ستكون

---

١ — س ٤١٣ عين المصدر

بالضرورة دولة صالحة ، حكيمة عفيفة عادلة شجاعة . ولكن فى أى من أقسامها تستقر الحكمة ؟ وهل تكمن فى نوع من المعرفة لا يحرزه الا طبقة الحكام الذين سميناهم « كاملين » ؟ وهل تتناول تلك المعرفة البحث فى شؤون الدولة كلها لتوجه علاقاتها الداخلية والخارجية فى أحسن اتجاه ؟ إن المعرفة المستقرة فى الطبقة الحاكمة هى التى جادت على الدولة المنظَّمة تنظيما يتناسب مع الطبيعة ، باسم « حكيمة » وتلك الطبقة هى نزر يسير من رعايا الدولة .

أما الشجاعة فهى مستقرة فى الفئة المحاربة التى تتألف وظائفها من الدفاع وخوض المعارك ، وقد سمينا تلك الفئة فيما سبق فريق «المساعدين» . وهى تؤلف الحلقة التى تصل بين الحكام الحقيقيين وجمهرة الزراع والصناع فى الدولة . هؤلاء الجنود البواسل يؤلفون طبقة مختارة هذَّبتها الموسيقى والجمباز . أُلِفَتْ إطاعة الأوامر وأُشْرِبَتْ روح الشرائع على أفضل وجه . فكان لها من ذلك — من فطرتها السليمة وتهذيبها القانونى — ما هيَّأها لأن تصدر آراء سديدة وأحكاما صحيحة ، فى تعيين ما تخشى وما تأمن ؛ ولم تقو اللذات ولا التخويف ولا الترغيب على أن تؤثر فيهم . إن القوة التى يزينها الرأى السديد تسمى « الشجاعة » .

أما «العفاف» فانه لا ينحصر ، كما تنحصر أختاه « الشجاعة والحكمة » فى فئة خاصة من الناس . فهو صفة قد توجد فى جميع صنوف البشر وفئاتهم . وحيث يوجد ينشىء سلسلةً قوامُ طرفيها الأقوياء والضعفاء ويكون بقية الناس فى الوسط . ورباط العفاف يضم أفضل عناصر الدولة جبلة إلى أسوإها ، سواء فى ذلك الفرد والجماعة من حيث إعداد المرشحين للحكم .

لقد اكتشفنا حتى الآن ثلاثة مبادىء من أربعة ، فما هو المبدأ الرابع

---

١ — س ٤٢٧ عين المصدر

الذى تشارك فيه الدولة فى الفضيلة ؟ إنه العدل ! وما فى ذلك شك ! علينا أن نكون الآن حذرين ، نرقب الأوضاع عن كثب ونحتاط لكل طارقة متمثلين بالصيادين الذين يسدون على طريدتهم كل المسالك لئلا تفلت منهم . لقد أعدنا القول وكررناه مراراً بأن على كل فرد من رعايا الدولة أن يحسن أمراً يميل اليه بفطرته . إن هذا هو العدل . وإن هذا هو أساس الدولة . فاذا قام كل انسان بدوره سادت الحكمة أعمال الحكام ، وتجلت الشجاعة بين الحكام والمساعدين ، وحل الوئام — وهو العفاف — بين الحكام والرعية . أما الغاية من تطبيق مبادىء العدل فى المحاكم فهى تمكين القوة الموكول اليها الأمر من أن تظهر حكمتها وشجاعتها وعفافها ، فتحمل كل امرىء على التقيد بأعماله الخاصة ، وتحول دون اعتداء أحد على أحوال غيره من الناس .

إننا نشعر الآن ، وقد بلغ بنا البحث هذا الحد ، أننا قد اهتدينا فى دولتنا إلى العدل الاجتماعى . ولعلّ الأصحّ أن نقول إننا اهتدينا إلى « الحق » . وعلينا من هذه الساعة أن نعمل لنكشف فى الفرد عن الفضائل التى اكتشفناها فى الدولة منتهجين السبل التى سلكناها فيما سبق . فى الدولة ثلاث قوى متمايزة : هى المفكرة ، والمنفذة ، والمنتجة . يقابلها فى الفرد ثلاث قوى هى : القوة العقلية ؛ ووظيفتها القيام بعمل يشبه عمل « حكام » الدولة فى مملكة النفس . أى إن عملها يتعلق بالحكمة ؛ والقوة الشهوية ، وتقوم مقام الشجاعة فى الدولة ، وتساعد الحكمة ، كما يعاون « المساعدون » الحكام . ومتى اقترنت هاتان القوتان بالموسيقى والجمناز ، نتجت القوة الغضبية وهى حقيقة الذهن الطبيعية . وكما أن الدولة تكون عادلة إذا التزم كل من أقسامها الثلاثة عمله الخاص ، كذلك يكون الفرد عادلا إذا أتم كل قسم من أقسام العقل عمله الخاص . أما حقيقة العدل

فهى « أن العادل لا يدع قواه الروحية تتجاوز حدود اختصاصها ، وتتدخل فى اختصاص غيرها ، فتعمل عمل ذلك الغير ، وأن العاقل هو سيد نفسه يعقل خُلقَه ليكون على أتم وئام مع نفسه ، ويجعل القوى الثلاث (العقلية والشهوية والغضبية) تُصدر نغمة واحدة ارتفاعا وانخفاضاً ووسطاً . وبعد قرن هذه معاً ، ورَدّ عناصر نفسه العديدة إلى وحدة حقيقية ، كانسان دمث متزن يتقدم إلى عمله فى الحياة معترفاً أن المسلك الشريف هو ما يصون سجية العقل ، وأن المعرفة الصحيحة التى تسيطر على تصرفاته هى « الحكمة » ويُقدِّر أن الاعتداء يُعرِّض الخلق للدمار ، وأن الرأى الذى يسيطر على التصرف المعوج هو حماقة » .

وهنا يرى غلوكون أن طبيعة البحث تتدانى بعد أن ظهرت لهم طبيعة العدل والاعتداء بالنور الذى سبق بيانه ؛ ولكن سقراط يطلب ـ وقد بلغوا هذه النقطة ـ أن لا تضطرب قلوبهم إلى أن يتأكدوا من صحة نتائجهم .

وبعد أن وصلنا فى بحثنا إلى هذا الحد نرى أن نبحث قليلا فى العوامل التى حملت أفلاطون على كتابة الجمهورية . لقد قصد بركليس بديموقراطيته أن يمنح الأثينيين أعظم سلطة من إدارة شؤون الحكومة . وقد نشأ إلى جانب التحرر بالديموقراطية نزعة « فردية » فى نفوس الرعايا الأثينيين لا حدَّ لها . فالسفسطائيون ، من الناحية النظرية أثَّروا فى الترويج للفردية ، فقد كان يُعلن فى حلقات دروسهم ، أن العدل هو مصلحة القوى ، وأنه هو ما يأمر به القانون ، وأن الانسان هو مقياس للأشياء كلها . وقد نتج عن كل هذا اعتبار الفوضى الفلسفية أمراً نسبيا . ولم تكن الحال بأحسن من هذا فى ناحية إدارة الشؤون العملية للدولة . وقد بين أفلاطون (على لسان سقراط) أن الدولة تشكو من عيبين : فهى تشكو أولا من النزعات التى تتجه

نحو تجزئة الوحدة ، كان الشقاق والخصام سائدين بين الناس ، وكان الحسد يُقلق النفوس ؛ وكان الانقسام متأصلا بين الطبقات . وتشكو — ثانياً — من المبادىء الديموقراطية (وقد بلغت ذروتها السيئة فى الانتخاب بالقرعة) بأن جميع الناس متساوون ، وأن بوسع كل إنسان أن يقوم بأى عمل يقوم به أى إنسان آخر .

هذه هى الأمراض التى كانت تشكو منها دنيا أفلاطون . وقد وصف لها الأدوية التى اقتضاها التشخيص . ولكى يتم الشفاء من التجزئة ، يجب أن تتمركز الوحدة فى جميع الأشياء . يجب أن تصبح الدولة (أو القسم الرئيسى منها) واحدة فقط ، وأن يستأصل جميع أسباب الخلاف . ولكى يتم الشفاء من داء « العجز » الملازم للديمقراطية ، يجب أن يفهم جلياً أن الحكومة هى وظيفة الخبراء ؛ وعلى الجملة يجب أن يقصر كل امرىء همه على عمله الذى يُحسنه ، لا فى الحكومة فقط ، ولكن فى كل شؤون الحياة ؛ ويجب أن لا يتدخل الانسان فى شؤون الناس الآخرين لكى يدير العالمَ وشؤونَه الخبراءُ وأهلُ الاختصاص . ولنبحث الآن فى القسم الأول من تلك العيوب وهى انعدام الوحدة وعلاج الشقاق والتفرقة .

يرى أفلاطون أن مبدأ الوحدة بوجه عام ، لا يقل من حيث جلال المنزلة ، عن الطرق التى يجب أن تُسلك لايجاد تلك الوحدة . واليك مقتبسات من الكتاب الخامس فى الجمهورية بهذا الموضوع . فلنستمع إلى سقراط يسأل ، وإلى غلوكون يجيب :

« أيوجد شر أعظم من تمزيق الدولة بدل جعلها كتلة واحدة ؟ وهل من خير أعظم مما يضمُّها ويحفظ وحدتها ؟

لا يوجد .

أولا تضمها المشاركة فى الألم والفرح ، فيفرح جميع سكانها معاً ، أو يحزنون معاً ، فى سرّائهم وضرائهم ؟

إنه لكذلك .

أولا يحدث الانقسام فى العواطف — فيكون بعض الناس فرحاً والبعض الآخر حزيناً فى حادث واحد يحل بالدولة وسكانها ؟

قطعاً يحدث .

أولا تنشأ تلك الحال عن عدم اتفاقهم فى كلمة « لى » وكلمة « ليس لى » فى الشيء الواحد . وكذلك فى كلمة « للآخر » و« للغير » ؟

حتما هكذا .

فأفضل الطرائق فى سياسة الدولة استعمال أكثرية أهلها كلمة « لى » أو « ليس لى » بفم واحد للشيء الواحد .

هذا هو الأحسن .

وهكذا إذا أصاب أحد أفراد الدولة ضررٌ ، أو حظى بنعمة ، هبت المدينة جمعاء تشعر معه فرحا وحزناً ، لأنه عضوٌ فى جسمها ، فتفرح معه كلها ، أو تحزن كلها .

ويجب أن يعم الدولة هذا الشعور إذا حسن نظامها [1] .

هذا هو المنهاج بوجه عام . فعلينا أن نلغى (حيث يجب الإلغاء) التمييز بين « لى » و « لك » ، يجب أن تزول من الوجود صيغة المتكلم المفرد - أنا ، ولى . . . ويتبع ذلك إلغاء المِلكية الفردية لأنها هى غاية كلمة

---

١ — ص ٤٦٢ من الجمهورية

« لى » و « ليس لى » ، وكذلك ـ وإن يكن لا يتفق ذلك تماما مع المنطق ـ يجب أن يزول من الوجود البيت الخاص والأسرة الخاصة ، لأن فى الأسرة تكمن كل روابط « الفردية » وأركانها . ويجب أن تصبح الأموال والنساء مشاعاً ، فلا يعرف إنسان فروعه من أولاد وأحفاد ، ولا يعرف أيضاً من أبوه وأمه . بل إن جيلا من الناس يلد جيلا آخر منهم .

هذه هى خلاصة بسيطة عامة للصورة التى ينزع اليها أفلاطون . ولكى نقدر عوامل الاشتراكية الأفلاطونية ، والتحفظات التى أحاطها واضعُها بها ، علينا أن نرجع إلى ما بحثناه سابقاً ، وأن نساعد فى انشاء المدينة لنتبين على أى الأشياء وبأى الوسائط تطبق الاشتراكية . إن منشأ الدولة ـ على ما بيَّن سقراط ـ هو عدم استقلال الفرد بسدِّ حاجاته بنفسه ، وهذا يعنى بتعبيرنا اليوم ، أن منشأ الدولة هو توزيع الأعمال ؛ وأن أصغر ما يمكن تصوره من المدن يتألف من أربعة أو خمسة رجال ؛ ونجد فيها أول عهدها زارعا وبناء وحائكا وإسكافا وعاملا لسد الحاجات الجسدية الضرورية . ولعل هذه المدينة هى ترجيع لصدى تلك الحكمة المشرقية التى تقول إن ضرورات الحياة هى الماء والخبز والكساء ومسكن يرفع عنا العار . وجلى أنه لا بد للدولة أن تتسع فتضم عدداً أوفر من الأربعة الصناع الأساسيين وعلى ذلك فلا بد لها من فتح الأسواق وتداول النقود لسد جميع حاجات السكان . وإذا تخطينا هذا الحد من « الدولة القويمة الصحية » فان الزيادة فى السكان ، والزيادة فى المهن تكونان على حساب الكماليات . وقد نضطر إلى التسطى على أصقاع جيراننا الواسعة لمد نطاق مراعينا وحقولنا وتوسيع أراضينا ، إذا كنا فى سعة وجيراننا فى ضنك إيغالا منا فى طلب الثروة بدون حد ، فيضطر جيراننا إلى معاملتنا بالمثل وتقع بيننا الحروب . وتستلزم الحرب وجود الحكام ومعهم جيش لجب يجول ويصول لصد

غارات الغزاة والذود عن الأرزاق والنفوس [١] .

والحكام فى الدولة الأفلاطونية ـ وهم يقسمون إلى « حكام بالمعنى الحقيق » وإلى « مساعدين » وهم الجنود ـ يشغلون مركزاً جليلا . ولا بدّ لهم ـ من أجل القيام بوظائفهم على أكمل وجه ـ من مزيج من المزايا والصفات . فيجب أن يجمع الحاكم فى نفسه الفلسفة ، والشجاعة ، والسرعة والقوة ؛ فيكون شجاعاً بالنسبة للاجانب ، ولطيفاً بالنسبة للرعية ، ويجب أن يتعلم ويتربى للوصول إلى هذه الأهداف .

والتربية والتعليم هما من الأسباب الرئيسية فى إيجاد الحاكم الصالح ، ولذلك نرى أن قسما كبيرا من صفحات الجمهورية يبحث فى التربية حتى إنه ليكاد يجعل من الكتاب مرجعا من مراجع التربية والتعليم . وقد سبق أن أثبتنا بعضا منه فى الصفحات السالفة من هذا الكتاب . وقد رأينا أن التعليم ـ حتى وإن تمشى مع المبادئ التى خطها أفلاطون ـ لا يكفى لأن ينتج الحاكم الصالح . يظل هناك خطر واحد ألمعنا إليه فيما سبق أفلا يجب الاحتياط من أن يصبح الحكام ، وهم أقوى من الرعية ، خطراً عليهم ؟ أفلا يصح أن يصير هؤلاء وحوشا ضارية تهجم على الرعية بدلا من أن يكونوا حلفاء صادقين ؟ ألا يمكن أن تهجم الكلاب التى رباها الرعاة للحراسة على الأغنام بدلاً من الذئاب ؟ إن الحل لهذه المشكلة قد وجده أفلاطون فى شيوع الملكية . ولكى يحول دون تسرُّب الفساد الى الحكام ، ولكى يحصلوا دائماً على أعظم المؤهلات ـ الحنان واللطف ـ نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم ، يجب أن يكونوا فى هذه الحياة ويترفعوا عن بهرجها ؛ فلا يكونوا كغيرهم من الناس ، يتعثرون فى شؤون الدنيا وشجونها . وهذا يعنى أن تهذيبهم الصحيح ، وبيئتهم وسكنهم ، كلها لا تشوب فضائلهم كحكام ، ولا

---

١ ـ س ٣٧٣ عين المصدر

تغريهم على أن يعتدوا على رعيتهم . ولكى لا نسىء الى هــذه الفكرة الافلاطونية نرى أن ننقل ترجمة عبارة أفلاطون حرفيا :

« والآن دعنا نبين طراز حياتهم وسكنهم إذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف : فيجب أن لا يتملك أحدُهم عقاراً خاصاً مـا دام ذلك فى الإمكان ، وأن لا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ؛ ويجب أن يكون طعـــامهم أقل ما يتطلبه الجنود الشجعـان المدرَّبون ، الذين يتحلون بفضيلتى الشجاعة والعفاف ؛ ويجب أن يوافقوا على أن يتقاضوا من الرعية أجرة سنوية معينة لقاء خدمتهم تكفيهم ، دون أن يفيض منهـــا شيء أو تقصر دون سد حاجاتهم ، ويجب أن يعيشوا كالجنود فى الثكنات عـلى الموائد المشتركة ، ويجب أن يعلنوا أن الآلهـة اكتنزت فى نفوسهم ذهبا وفضة سماويين ، ولذلك فلا حاجة فيهم إلى الركاز الترابى ، وعار عليهم أن يدنسوا بضاعة الآلهة الأبدية بالذهب الفانى . ذلك لأن هذا المعـدن الأرضى كان مصدراً لـكثير من الشرور ، بينما الذهب السماوى ظل بعيـداً من الفساد . وهم وحدهم من بين كل رجال المدينـة ، مستثنون من مس الفضة والذهب ، فلا يدخـلونهما تحت سُقُفهم ، ولا يحملونهما ، ولا يشربون بكؤوس صيغت منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم . ولـكنهم إذا امتلـكوا أراضى وبيوتا ومالا ، مِلـكا خاصا ، صاروا مالـكين وزراعا عوض كونهم حكاما . فيصيرون سادة مكروهـين لاحلفاء محبوبين ، ويصبحون مبغِـضين ومبغَـضين ، يُكاد لهم ويكيدون ، فيقضون الجـانب الأكبر من حياتهم فى هـذا العراك ، وخوفهم العـدوَّ الداخلى أكثر جداً من خوفهم العدوَّ الخارجى ، وفى حال كهـذه يرمون بأنفسهم ويسيرون بالدولة ، الى الدمار [1] »

---

١ – س ٤١٦ - ٤١٧ من الجمهورية .

وهذه ولا شك اشتراكية عجيبة ! فالحكام (ونحن نستعمل هذه الكلمة هنا بمعناها الواسع بحيث تشمل المساعدين أيضا) هم فريق مأجور من السكان كما يقول أصحاب المذهب الفيزيوقراطى [١] . ويدعم هؤلاء ويساندهم الطبقة الثالثة ـ الزرّاع . ومع أنهم يتقاضون أجوراً على أعمالهم ؛ إلا أنه اشترط فى تحديد تلك الأجور أن لا تفيض عما يدفعونه إلى الموائد العامة التى يتناولون طعامهم منها . ولعلَّ من الخطأ أن توصف هذه الحياة بأنها نظام اشتراكى ؛ لأن الحكام ، أفراداً وجماعة ، لا يملكون شيئاً من حطام الدنيا وعرَضها . وقد أوضح فى الكتاب التالى [٢] « أنهم يقتصرون على القوت ، ولا يأخذون معه مالا كالآخرين ؛ فلا يمكنهم السفر على نفقتهم ، إذا أرادوه . ولا تقديم الهدايا للحظايا ، وإنفاق الاموال على الرغائب الأخرى » . والخلاصة أنهم يُعالون ولا يتناولون أية نقود بأيديهم . فاذا كان هذا ضرباً من الاشتراكية فانها اشتراكية الفقر ، والزهد ، وإنكار الذات ، وإذلال النفس . وهى تمثل نقصاً اقتصادياً وليست امتيازاً رفيعاً . وهى فى الواقع وسام الفقر المطبوع على الحاكم ضماناً لكفاءته .

إن غاية هذا النظام تقصيه عن جميع أنواع الاشتراكية والشيوعية الحديثة منذ أيام سير توماس مور إلى وقتنا الحاضر . لقد بشر كثيرون بالشيوعية ولكنهم كانوا مدفوعين بما وَقفوا عليه من الفَرْق الواسع والهوّة

---

١ ـ Classectipendiée . والفيزيوقراطيون Physiocrats هم أتباع مدرسة اقتصادية أسسها فى فرانسا فى القرن التاسع عشر كويزنى . ومذهبهم أن المجتمع يجب أن يحكم وفاقا لنظام طبيعى كامن فى الناس ، وأن الأرض هى المصدر الوحيد للثروة والمادة الوحيدة التى يجب أن تكون هدفا للضرائب ، وان حماية الملكية وحرية الصناعة هى ضرورية للحياة .

٢ ـ س ٤٢٠ من الجمهورية .

السحيقة بين ثراء الأغنياء وحاجة الفقراء ، لقد أذهلتهم الخطورة ، التى وصفها روسو بقوله : حفنة من الناس تَتْشرق بالكماليات ، بينما الأكثرية الغالبة يفقدون الضروريات . وعلى هذا نرى أن افلاطون هنا لا يجارى تيّار الفكر الاشتراكى العام بل ينفصل عنه ، وهذا أمر مستغرب جداً : ذلك لأنه فطن لبقية أطراف المسألة . وقد أدرك ، وهذا ظاهر من جملة كرِّرت كثيراً فى الكتاب ، أن هناك خطراً جاثماً فى أن تصير المدينة مدينتين : مدينة للأغنياء وأخرى للفقراء . بيدَ أننا مع كل ذلك لم نقف فى آرائه الاشتراكية على أثر لهذا البحث ، فقد أوجد الاشتراكية لغاية واحدة وهى لكى لا يتمتع الذين تطبق عليهم بطيبات هذه الحياة الدنيا .

والمسألة الثانية التى تسترعى الانتباه هى الحدود التى تطبق فيها الاشتراكية فى الدولة الأفلاطونية . إن مجرَّد قراءة العبارة التى اقتبسناها من الكتاب الثالث ، تترك فى القارئ الذى لا محل للسفسطة فى آرائه ، أثراً هو أن نظام شيوعية افلاطون يقتصر فى انطباقه على طبقة الحكام والمساعدين القليلة العدد ، وأنه لم يكن يقصد تطبيقه على الطبقة الثالثة التى دعاها طبقة الزرّاع : لقد ذكر افلاطون هذه الطبقة فى الجمهورية مرة ، ولكننا لم نستطع أن نعثر عليها مرة أخرى فقد زالت من الوجود كطبقة فى كتابه ، ذلك لأن تهذيبَ الطبقتين العاليتين وطرازَ معيشتهما قد أخذا عليه كل مناحى لبِّه وتفكيره . فنتج عن ذلك أن افترض الباحثون أن افلاطون قد قَصَر شيوعيته على الجنود والموظفين فقط ، وأنه ترك طبقة العمال ترفل فى أسباب حياة الأسرة وتعتنى بنسائها وأطفالها . على أن هذا الرأى لم يكن عاماً شاملا . فقد ذهب مستر بير فى كتابه « الصراع الاجتماعى فى الأزمنة القديمة » الى الرأى التالى :

إن قراءة الجمهورية — قراءة سطحية — يؤدّى الى الاعتقاد — وكثيرون هم الكتاب الذين اتبعوا هذا الرأى — أن افلاطون يرمى إلى قصر الشيوعية على هذه

الأقوام العليا من السكان ، وأنه ترك بقية الناس يعيشون على منهاج حياتهم القديم . إن هذا التأويل خاطىء بكليته . إنه ليتبين من العبارة التي اقتبسناها أعلاه أن افلاطون وصف الشيوعية لجميع الهلليني. وبخلاف ذلك لا نجد محلا لنقده اللاذع ، الذي يسلطه في كتابيه ، على أحوال بلاده الاقتصادية والسياسية والأخلاقية [١] .

ولا شك بأن أرسطو هو واحد من هؤلاء القراء السطحيين الذين كان لهم نصيب في قراءة « الجمهورية » ، وقد وقف على هذه النقطة وقال : إن أغلبية الدولة لا تتألف من طبقة الحكام وانما تتألف من جمهرة الرعية ، وهؤلاء لم يعين افلاطون لهم شيئا [٢] . وقد بين أن افلاطون لم يوضح ما إذا كان يرغب في تطبيق النظام الشيوعي على طبقة الزرّاع أم على الحكام فقط . فاذا كان الجواب أنه أراد تطبيق نظامه على الطبقتين فاننا نتساءل : كيف يتسنى له التمييز بين الطبقات ؟ وإن كان الجواب بالنفي ، نتج عن ذلك وجود دولتين في دولة واحدة . واننا لنجد عالماً مُعاصِراً هو (سير إرنست باركر) قد شابه أرسطو من حيث « سطحيته » فقال : إن افلاطون لم يقصد تطبيق شيوعيته في الممتلكات ، ولا شيوعيته في الزوجات على الطبقة الثالثة أو الطبقة الاقتصادية . فكيف يمكن أن لا يُطبَّق نظام قائم على إنكار الارادة ، على الطبقة التي تمثل عنصر الارادة [٣] .

وإننا لنجد الاستاذ بولمان [٤] ينهض في مجلديه الضخمين بالحجة القائلة ان افلاطون لم يهمل مركز الزرّاع في شيوعية جمهوريته . وبالاختصار ، نقول أولاً : لما كان افلاطون قد بين في كتابه (القانون) بشكل محدود

---

١ - Beer : Social Struggles in Antiquity, p. 97

٢ - Aristotle : Politics, Booka II, Chap.V

٣ - Barker : Political Thought of Plato and Aristotle, p.140.

٤ - Pohlmann : Geschiehte des Antiken Kommunismus und Sozializmus, Vol. I. p. 295 et seq

طراز معيشة « الزرّاع » لا يُعقل أن ينسب إليه أنه حرم هؤلاء الناس من مميزات دولته وحسناتها المثلى . ثانيا : لقد زعم فريق من العلماء أن افلاطون أهمل عن عمد تبيان التفصيلات المقتضاة لتطبيق مبادئه على جميع سكان دولته دون ما تمييز ، وأرغمه على ذلك نظام كتابه ؛ وبأنه رأى بعين بصيرته ما قد يثيره أرسطو من الانتقادات فى المستقبل فاحتاط لها مقدما . ونجد سقراط يحجم ـ فى الكتاب الرابع ـ عن الإسهاب فى تفصيلات كثيرة ملمعاً إلى أن تلك المسائل هى من « صغائر الأمور » ، وأنها ستحلُّ نفسها بنفسها ، أو أنها ستحَل تبعاً للمسألة الجليلة الكبرى وهى توفير تهذيب وتثقيف الطبقة الحاكمة : « إذا تثقف رعايانا تثقيفاً حسناً وأصبحوا رجالا مدركين ، فانهم سيعملون بهذه الفضائل وبغيرها من الأمور الطيبة التى لا فائدة من إعادة ذكرها هنا » . وبعد سرد سلسلة من الأسئلة يُظهر جزعه ويقول : « ولكن ـ بحق السماء ـ هل علينا أن نضع تشريعاً لكل من هذه المسائل التفصيلية ؟ » ويجيب أديمنتس الصدّيق بقوله : « لا يتناسب تحديد هذه الأمور للأقوام الصالحين المهذبين ، لأنهم فى أكثر الأحوال قلما يجدون صعوبة فى استنباط ما يلزم لها من التشريع اللازم »[١] .

ومن هنا ينهض الدليل على أن افلاطون قد شغله أمر واحد ، وأمر واحد فقط ، وهو تهذيب الحكام والمساعدين ، وهؤلاء الحكام يضعون فيما بعد القوانين والأنظمة المقتضاة لحياة السكان عامة . على أن افلاطون ـ وشأنه فى ذلك شأن الكاتب المتبصر فى إحدى مصالح الحكومة ـ تمنّع عن إبداء أى رأى قد يزعج رؤساءه فيما بعد .

١ ـ س ٤٢٥ من الجمهورية .

لقد رأينا هنا أن فيلسوفين عظيمين ، أرسطو وأستاذ التاريخ القديم فى جامعة (ايرلنجن Erlangen) يسيران فى اتجاه معاكس فى هـذه المسألة . وإذن ألا يحق للقارئ العادى أن يتمشى باحتراس وحذر؟ ومع كل هذا ، فلو سمح لأفلاطون نفسه أن يتكلم ـ وأخذنا بالقاعـدة الفقهية أن الكلام يؤخذ على ظاهره ـ لتبين لنا جليا وضع نظامه الاشتراكى دون الحاجة إلى أى تفسير أو تأويل . لقد وصف نظامه هذا ، بأنه التشريع الذى وضعناه لحكامنا ، . يجب أن يعطى الحكام أجراً معيناً يتقاضونه من الرعية ، وهذا نظام حياة لا يمكن تعميمه . وأبلغ من كل هذا أن الحكام إذا خرجوا على الاشتراكية لأى سبب فانهم يصبحون بوابين أو زرّاعاً بدلا من أن يظلوا حكاماً . وعلاوة على كل ما تقدم فاننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الغـاية من الاشتراكية الافلاطونية ، لا نرى مبرراً مقبولا لبسطها على الزرّاع وغيرهم من العمال . يحق لنـا أن نمنع طبقة من الناس من ممارسة بهارج الدنيـــا وزخرفها ، ولـكن ليس من الميسور منع جميع السكان من أخذ نصيبهم من الحياة . والواقع أننا حتى لو وضعنا جانبا ، إلى حين ، عبقرية افلاطون العلمية وتتبعنا جميع آرائه فى الجمهورية نجـد أنه صاغ أبحـاثه بشكل يفهم منه أنه قصد أن يجعل الاشتراكية العلامـة التى تميز الطبقتين العاليتين عن الطبقـة الثالثة . لم يقل افلاطون بالمبدإ الاشتراكى لينقذ الدولة وسكانها من الشرور التى أحاقت بها ، وإنما أوجد هـذا المبدأ ليدرأ عن الذين أهّلهم تهذيبُهم وصلاحُهم للإحسان كلَّ ما يغرِّر بهم ويغويهم للاندفاع فى غير الصراط المستقيم .

ويتضح لنـا من هذا أن اشتراكية افلاطون ليست مشابهة للنظريات الاشتراكية الحديثة ، ولم تقصد إلى تأمين الحياة المادية لجميع السكان . إنها تحديد لصلاحيات الحكام غير المحدودة . ترينا الجمهورية صورة للحكام من

الرجال والنساء الذين نبذوا المطامح فى تعظيم أنفسهم بالجاه والثراء . إن رغبتهم أن يعيشوا عيشة راضية ، بعيدين عن أسباب الظلم والاستبداد ، يتصرّفون على الرعية حسب مصلحتها . ذلك لأنهم يعلمون أن الدولة إذا لم يُسعفوها ستستولى عليها أيدٍ غير صالحة ، فيسرع اليها الدمار ، ولا تعود تصلح لأن تكون مستقراً للفلاسفة المخاصين .

وعلينا — اتماماً للصورة التى رسمها افلاطون لشيوعيته — أن نشير الى بحث آخر ورد فى كتابه الخامس . ذلك هو شيوعية الزوجات والأولاد . وليس من الضرورى لنا هنا أن نتبسط فى نظام الزواج بطريق القرعة ، مع ما يعلق به من الغش والخداع من أجل زيادة النسل ، ولا بغير ذلك من الطرق والأساليب التى اقترحها افلاطون لتضليل المرأة عن أن تتعرّف الى من يكون ثمرة جسمها من أبناء الجيل المقبل . غير أننا نجد من الطريف أن نبين غاية شيوعية الزوجات (والأزواج) وأهدافها تأييداً ودعماً لما بيناه سابقاً . يبدو لنا أن لاقتراح هذا النظام غايتين تمتزجان معاً وتتداخلان : فالأولى الفكرة (الخاطئة) بأن الوحدة والتماسك تزداد بين الناس إذا اعتقد كل فرد أن الجيل المقبل بكامله يُمثل أولاده فيوجه اليهم بعطفه وحنانه الأبوى . ثم أليس جميلا ومُبهجا أن يقيم الإخوة معاً فى ظلال الوحدة ؟ وهل هنالك وحدة أعظم من الوحدة المستقرة بين جماعة إذا لقى بعضهم بعضا عدّه « أخاً أو أختا أو أباً أو ابناً أو ابنة أو أصلا أو فرعاً ؟ » [1] ويكاد يكون هذا الأمر معتمّداً ولكنه واضح على أى حال . وقد يكون نقْد أرسطو لهذا النظام على جانب كبير من الصحة . ذلك لأن العالم الذى فيه ألفُ ابن يشترك فيهم ألفُ أبٍ لا مندوحة فيه

---

١ - س ٤٦٣ من الجمهورية .

عن أن يهمل جميع الآباء كلَّ الأبناء [١]

وقد فكر (برودهون Proudhon [٢]) فى أخوّة عامـــة لبنى الانسان ، وصاغ هذه المسألة فى قالب شعرى لطيف . والثانية : ويلوح لنا أنها سبب ونتيجة لإدراك الوحدة ـ وقد تكون وجهاً آخر للوحدة عينها ـ وهى إتقان العمل : « إن شيوعية الممتلكات وشيوعية نساء الحكام وأولادهم تجعلهم حكاماً ثقات ، وتحول دون تمزيق المدينة بكلمة « لى » وكلمة « ليس لى » . إن فقر اشتراكيتهم يجعلهم يُتقنون أعمالهم . « لأنهم لا يملكون إلا أنفسهم ، وكل ما سواها مشاع ؛ ونظراً لعدم وجود ملكية خاصة لن يكون للشكايات المتبادلة محلٌ بينهم ، وتطهر أنفسُهم من الحقد واللؤم الذى يحل بالناس بسبب التنازع على الأموال والأولاد والأصحاب » . وسيُتقن الحكام عملهم كحكام ويعتنون برعيتهم ويحافظون عليها ، وينْجون من كل الاضطرابات التى يسببها « التعب فى تربية الأسرة ، وفى إحراز الأموال لسدّ نفقاتها ، ودفع أجور الخدم ، والاضطرار الى استقراض الأموال ، وتطليق النساء وما الى ذلك من الشرور » التى يقول الفيلسوف اليونانى عنها « إنه لا يختار ذكرها فى القانون لتفاهتها . [٣] »

لعلنا قد تبسطنا فى شرح شيوعية « الجمهورية » لنظهر أنها كانت عاجزة عن إجابة سؤال جميع الذين توسلوا بها فى الأجيال التالية . وجملة القول ،

---

١ ـ Politics , Book II , Chap.3

٢ ـ هو بيير جوزيف برودهون الفيلسوف والكاتب الاشتراكى الذى لمع فى القرن الثامن عشر واشتهر بكتابه الضخم
De La Justice dans la Revolution et dans l' Eglise.

٣ ـ ص ٤٦٤ من الجمهورية .

أنها كانت شيوعية أدْيار النسك والزهد والتقشف ، وشيوعية انسحاب من الحياة وشئونها وبهرجها وملذاتها . وعلى الرغم من كل المساعى التى بذلتها عبقرية افلاطون ظلت شيوعية يُطبقها قسم قليل من السكان . ولعلَّ لرأى أرسطو فى هذا الموضوع ما يبرّره . « ستكون ثمة دولتان فى دولة واحدة وهما بالضرورة متعاديتان » . على أن هذا القول يخفف من حدّة المشكلة . إن شيوعية « الجمهورية » هى شيوعية اتّكالية . « يتناول الحكام نفقاتهم من الأهالى جزاء عملهم ، وينفقون مشتركا إذا راموا أن يكونوا حكاماً حقيقيين [١] » . إن هذا العصر عصر القوة الاقتصادية ، يقرر ولا شك مَن من هاتين الدولتين المتعاديتين فى رأى أرسطو ستدخل المعركة ، وهى على ثقة بأن النصر سيكون حليفها .

لقد تمشينا مع المحاورة تدريجياً إلى أن أعلن غلوكون أن البحث بلغ الهدف الذى اتجه اليه عندما وافق الحضور على أن العدل خير من الاعتداء للفرد والدولة على السواء . ثم نجد سقراط يتردَّد فى التوسع فى المواضيع المختلفة ولكنه يعود فيبحثها إجابة لطلب الحضور ، ويتقدم كما يفعل السبّاح — على حد قوله — شاقّاً طريقه فى ثلاث موجات متعاقبة . ففى الموجة الأولى يضع أساس التعليم المشترك الرجال والنساء من الحكام ، وفى الموجة الثانية يقول بشيوعية الزوجات والأولاد ، أما فى الثالثة « وهى أثقل الثلاث وقعاً » فانه يتساءل ما إذا كان نظامه الشيوعى ، وإذا كانت دولته المثلى هما من الممكنات ، وما هى طرق تحقيقهما ؟ والجواب على هذا السؤال يسوقه الى بحث عميق فى الأسباب التى تخلق حكاماً صالحين ، وإننا لنراه يُغرب فى البحث ولا يعود الى بحثه الأساسى المتعلق بالعدل والاعتداء قبل أن يصل

---

١ — س ٤٦٤ من الجمهورية .

إلى الكتاب الثامن (أى بعد أن يجتاز ثلاثة كتب فى الأمور الفرعية) . على أن موجة البحث الثالثة (وهى تستغرق من س ٤٧٢ فى الكتاب الخامس الى س ٥٤١ فى الكتاب السابع) تمثل ركن الجمهورية وأجلّ قسم فيها . ونجد افلاطون يرقى الى ذروة البلاغة ويسبح فى فيض الخيال . ولسنا نجد فيها سطراً واحداً يخلو من معنى يستنبطه منه الفلاسفة الطبيعيون والاجتماعيون وعلماء الالهيات وعلماء السياسة والمصلحون فى يومنا هذا .

ولنعد إلى الموجة الأولى : يقرر سقراط أن الطبيعة لم تبرز لنا فروقا تميز بين المؤهلات التى يتمتع بهـا الجنسان (الرجال والنساء) المقتضاة لادارة الدولة . إذ يختلف النساء ويتغايرن من حيث المؤهلات والكفاءات . شأنهن فى ذلك شأن الرجال .

وفى الموجة الثانية يقول لنا افلاطون إننا إذا أردنا الحصول على أرقى دولة ، فيجب أن نكثر من تزويج أفضل الرجال من أفضل النساء . يُترك أمر تعيين عدد الزوجات للحكام ليحفظوا التوازن فى عدد السكان . تُزف العرائس فى أثناء الولائم . يُقلل من تزويج أدنياء الرجال . ويحفظ هذا الأمر سراً لا يكشف عنه إلا للقضاة . يوجه الالتفات والعناية إلى تعليم أبناء أفاضل الرجال وفضليات النساء . وحالَ ولادة الاطفال يتسلمهم موظفون أو موظفات مخصصون لهذه الغاية .

وأخيراً نصل الى الموجة الثالثة ، وهى التى سماها سقراط الموجة الكبرى . « لا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الإنسانى ، ما لم يملك الفلاسفة أو يتفلسف الملوك والحكام ؛ أى ما لم تتحد القوّتان السياسية والفلسفية فى شخص واحد ، وما لم ينسحب من حلقة الحكم الأشخاص الذين يقتصرون على إحدى هاتين القوتين ، فلا تبرز الجمهورية التى صوّرناها إلى

حيز الوجود ، ولا ترى نور الشمس بغير ذلك[1] » .

وهذا البيان الذى يخالف الرأى العام الإغريقى فى أيامه سبَّب قيام ساسة العصر بهجوم شديد مركَّز على سقراط . وقد أصبح لزاماً علينا الآن أن نعرف ماذا يقصد بالفيلسوف . «الفيلسوف هو الذى يشتاق الى الحكمة اشتياقا كليا لاجزئيا ، وينفذ بصره إلى ما وراء المرئيات المادية ، ويدرك كنه الجمال ، ويتفكر فى العدل المطلق . والفلاسفة هم القادرون على إدراك الأبدى غير المتغير ، وهم الذين يعرفون كنه الأشياء معرفة حقيقية » .

ويمثل سقراط الجهل المتحكم بالجنس البشرى (بما يسمى كهف افلاطون فى أول الكتاب السابع) فيقول : تصوَّر طائفة من الناس تعيش فى كهف يدخله النور من باب صغير ، وقد سجن فيه أولئك الناس منذ طفولتهم وجعلت فى أعناقهم وأرجلهم سلاسل وأغلال منعتهم من الحركة وحتَّمت عليهم النظر الى الأمام . ثم تصور أن وراءهم ناراً ملتهبة ، وأن بينهم وبينها دكة عليها جدار . وتصور أناسا يمشون وراء ذلك الجدار حاملين تماثيل بشرية وحيوانية مصنوعة من خشب وحجارة . بعض أولئك الناس يتكلم وبعضهم صامت . إن أولئك السجناء لا يقدرون أن يرى بعضهم بعضاً ، ولا أن يروا سوى الظِّلال التى أحدثها اللهيب وراءهم . إنهم لم يروا شيئا غير هذا . إنهم لا يستطيعون فى حالتهم تلك أن يتصوروا عالما تُضيئه الشمس بنورها . وسوف يظلون كذلك إلى أن يُنقذهم أحد الناس فيفك وثاقهم ويحل عقالهم ويخرجهم من ذلك العيش الضنك إلى حيث تشرق الشمس بنورها على مخلوقات الله . إن هذا المثل يشبه وظيفة المعلم .

هذه هى الموجة الثالثة — الموجة الكبرى — قد اجتزناها . إن

---

١ - س ٤٧٣ من الجمهورية .

بالإمكان وجود الدولة المثلى ، إذا وجد الفلاسفة الذين يستحقون التمتع بهذا الاسم ، وألقيت مقاليد السلطة المطلقة اليهم . إذا وجد الرجل الكامل أوجد هو الدولة الكاملة . ولكن قد لا يجد هذا الفيلسوف نموذجاً لها إلا فى السماء ، فيبنى نفسه على مثاله . وليس وجوده على الأرض بالأمر الجليل لأن الفيلسوف سوف يختار نظام هذه المدينة فقط ، معرضا عن كل ما سواها .

نرى سقراط يتطرق أخيراً - فى أول الكتاب الثامن - إلى البحث الذى أرجأه فى آخر الكتاب الرابع فى الدولة والأفراد الذين يؤلفونها . ان الأرستقراطية هى الدولة المثلى التى يحكمها « خير الناس » وهم الحكماء الفاضلون . ولنفرض أن الحكام أذنوا - جهلا منهم - لآباء غير صالحين بالزواج ، فان الجنس البشرى يبدأ فى التدهور ، ويدبّ الخلاف بين صفوف الناس . وتحل الروح العاطفية محل العقل ، والطموح محل الحب والحق . يدعو افلاطون هذا النوع من الحكم « التيماركية » لأن مبدأها فى الحكم هو حب الشهرة والمدح والتغلب والقهر . وأصل التيماركى ابن رجل فاضل ولكن فطرته الجشعة تسوقه إلى إنفاق أموال الآخرين ، مع الضنّ بماله الخاص . يستمتع بالملاذ السرية ويهرب من القانون هرب الصغار من والديهم . ويتلو ذلك من أنظمة الحكم الحكم « الاوليغاركى » وهو الذى يقدّر فيه الناس بثروتهم ، فيحتكر الأغنياء الحكم ولا يكون للفقير فيه نصيب مهما يؤتى من صنوف الحكمة وعظيم المعرفة . وأفظع مساوئ الحكم الأوليغاركى أنه ينتج مدينتين ; مدينة مؤلفة من الفقراء ، والأخرى من الأغنياء . ان نقص التهذيب ، وسوء حال الجمهورية ، وفساد نظام البلاد قد جعل من الناس قسمين : قسماً غاية فى الثراء ، وقسما غاية فى الفاقة . والحكام فى النظام الأوليغاركى أشبه شيء باليعسوب ، فهم بلاء على الدولة ،

كما أن اليعسوب بلاء فى القفير . غير أن الله لم يسلح اليعسوب بحمة ، وسلح يعاسيب البشر بحمات لاذعة .

بقى علينا أن نبحث فى نشأة الاستبداد . الواضح أنه يُتخطى اليه من الديموقراطية . نشأ ولد من أب ديموقراطى وتمتع بحياة لينة هينة ، فبدَّد ثروة أبيه واستولى على نفسه حبُّ الشهوات فقاده الى الاجرام المستمر . وأخيرا يجد نفسه فى المدينة حاكما فيستبد بشؤون الدولة ويكرهه كل من يتصل به من الناس . إن المستبد الحقيقى هو فى الواقع عبدٌ لشهواته ، لا يستطيع مقاومتها . وكلما طال به الأمد خسر الدنيا والآخرة . ليس له صديق . هو نفسه بائس ؛ ويتسبب فى بؤس وشقاء من يلوذون به .

وتنشأ الديموقراطية بفوز الفقراء : فيقتلون بعض خصومهم ، وينفون غيرهم ، ويتفقون مع الباقين على اقتسام الحقوق والمناصب المدنية ، بالتساوى ، ويغلب فى دولة كهذه أن تكون المناصب بالاقتراع . ويكون الناس فى الديموقراطية أحراراً ، يقولون ويفعلون ما يشاءون . والديموقراطى هو - عادة - ابن الأوليغاركى الذى تربى فى كنف والده وتخلق بخلقه . وخير الديموقراطية الأعظم هو فى الحرية ، والحرية أجمل مافى الديموقراطية . والمدينة الديموقراطية تقسم إلى ثلاث طبقات : طبقة الحكام وأرباب المناصب ، وطبقة الأغنياء ، وجمهور العامة ، وهم العاملون بأيديهم ، لا يتدخلون فى السياسة ، وليسوا أغنياء كثيرا . هم أوفر عدداً فى الديموقراطية ، وأعظم شأناً إذا اتفقت كلمتهم . ويختار العامة عادة بطلا لهم يولونه قضيتهم ، ويحتفظون به ويعظمونه . وقد نشأ الاستبداد من هذه البطولة .

وبعد فاننا نستطيع أن نصرّح بملء أفواهنا أن الملك الفيلسوف هو أفضل الناس وأصلحهم للحكم وان المستبدّ هو أبأس الناس . إن التيماركى يعيش عيشا أرغد من الأوليغاركى ، وأرضى من الديموقراطى .

والآن وقد دلل سقراط مفصلا على أن العدل خير من الظلم ، نصل إلى الكتاب العاشر ـ وهو آخر كتاب فى الجمهورية ـ فنجد افلاطون مقتنعاً بأن الانسان العادل محبوب لدى الاله حتى انه لو أصابه « مرض أو فقر ، أو أى مصاب أليم آخر ، كانت عاقبة ذلك خيراً ، إما فى هذه الحياة الدنيا أو فى الآخرة ، لأن الله لن ينسى من جاهد فى سبيل البر والفضيلة » .
ولكى أبين الثواب الذى ينتظر النفوس الطاهرة والعقاب الذى ينتظر النفوس الشريرة استمع الى حكاية (آر) بن ارمنيوس الذى انتقل فى رحلة اثنى عشر يوما إلى العالم الآخر ورأى النفوس ترد إلى ميدان القضاء ، إما بالنواح والعويل ، إذا كانت قادمة من تحت الأرض ، أو بالسرور والبهاء إذا كانت قادمة من السماء . والنفس التى ترد من السماء هى نفس البار العادل فى الدنيا ، أما التى ترد من تحت الأرض فهى نفس المستبد الظالم .
وبهذه الأسطورة التى تبين أن العدل خير من الظلم فى الدنيا والآخرة ، ينهى سقراط الدفاع عن العدل ويختم حديثه قائلا : « ولا ريب عندى أننا إذا عملنا بنصيحتى ، وآمنا بخلود الروح ، وبحرية الانسان فى تقديره وتدبيره إن خيراً وان شراً ، فاننا نظل نسير على الطريق المستقيم ونحافظ على أصول العدل المقرون بالحكمة ، لكى يحب بعضنا بعضا ، وتحبنا الآلهة ، ليس فى حياتنا الدنيا فحسب ، بل أيضاً حينما نتقدم ـ كالفائزين فى الألعاب الذين يحملون هدايا المعجبين بهم ـ لنيل جزاء الفضيلة ، فلا ننفك مفلحين فى هذه الحياة وفى سياحتنا فى الألف السنة التى أتينا على وصفها[1] » .
وبعد أن قطعنا هذا الشوط الطويل فى دراسة « الجمهورية » لعلَّ من المناسب هنا أن نلقى نظرة عابرة على كتاب « القانون » لأن هذا الكتاب يوضح الكثير من آراء افلاطون فى السياسة ، مع أننا نعتقد أنه لن يضيف شيئاً جديداً جوهرياً الى ما سبق أن بسطناه .

---

١ ـ فى الأسطورة .

لقد كتب افلاطون « القانون » فى أيام شيخوخته . وقد أزال به الأوهام التى علقت بآرائه القديمة فكشف السر عن حقيقة مقاصده بعد أن عدّها على وجه تقتضيه الحياة العملية . لقد اعتقد افلاطون بادئ الأمر ، أن بالامكان تحقيق « حُلم » الجمهورية ، فحاول عبثا أن يغرسه فى الأرض . والواقع أن الجمهورية كتاب ثورى ، وأن « القانون » كتاب اصلاحى . اعترف افلاطون أن دولته المثالية أو « الجمهورية هى فوق ادراك كل انسان ضعيف الإرادة ، يخشى العواقب ويتردد فى الإقدام على الأمور المحفوفة بالأخطار ، فهبط من عليائه وأخذ يصوّر لنا دستور دولته المثلى الثانية . ولكنه لا يُقصينا به كثيراً عما عرفناه فى الجمهورية . وان الدستور ونظام الحياة التى رسمها لنا فُصلت تفصيلا قُصد به الحيلولة دون انتشار عدم المساواة وذلك بتحديد نسبة ما يملكه الأغنياء الى ما يملكه الفقراء . غير أن أبرز ما يستدعى الانتباه فى الكتاب أن الحماسة القديمة ما تزال تتأجج نارها فى نفس افلاطون بالرغم من أنه سطره ليصقل آراءه السابقة . واننا لنقرأ فى عبارة تكاد تنطق بأحلام افلاطون المفقودة ما يلى :

« إن أعظم أنواع الدولة ، وأشكال الحكومة ، وأنظمة القانون ، هى التى يسود فيها المثل القديم « كل ما يملكه الأصدقاء هو مشاع بينهم » . أما أن يكون فى الإمكان ـ الآن أو فى المستقبل ـ أن تسود شيوعية الزوجات والأولاد والأملاك ، وأن يزول التملك والاختصاص الفردى من الحياة ، وأن تصبح الأشياء التى هى بالطبيعة خصوصية كالأعين والآذان والأيدى مشاعاً ، وأن يشعر الناس معاً فى زمن واحد بالابتهاج والاشمئزاز وبالفرح والحزن ، وأن توحد القوانين ـ مهما يكن شكلها ـ وأن يربط سكان المدينة جميعاً برباط واحد ، ـ أما أن يكون كل ذلك ممكنا أو مستحيلا ، أقول إنه لا يمكن لأى إنسان يعمل على غير هذه المبادئ أن ينشئ دولة تكون أحسن وأصلح وأفضل من هذه [1] »

---

١ ـ القانون ـ الكتاب الخامس .The laws, Book V, Jowett; Ed

الفصل الثالث

آراء أهل

المدينة الفاضلة

للفارابي

تمرُّ بالمرء ساعات يقول فيها إن أمراً ما « أفقده وعيه » أو إن « شدَّة الصدمة حالت بينه وبين الكلام » ؛ والواقع أن كلتى العبارتين متناقضتان ؛ ذلك لأننا فى بعض الأحوال نجد أن الصدمة تشحذ شعورنا وتحملنا على التفوه بعبارات وكلمات تصف الوضع الذى نحن فيه . وفى بعض الأحيان ، عندما تجرح عواطفنا ، أو يُعبث بآرائنا ، أو يُسخر من أقوالنا ، نقف مفكرين بعض الوقت . وقد تكون خبرتنا فى الحياة وشؤونها قد بلوناها بهذه الواسطة ، وقد تكون معرفتنا بأسباب تلك الحياة قد اكتسبناها بتلك الوسيلة ، وقد تكون كل الفلسفة فى العالم قد نشأت على هذا الوجه . ولعلَّ خير الأمثلة على ذلك أن أفلاطون وأرسطو لم يكتبا ما كتباه بطريق الصدفة عندما كان العصر الهلِّينى يشهد التطوُّر الذى أدَّى إلى دمج الدويلات اليونانية فى امبراطورية عامة موحَّدة ؛ وأن سانت أوغسطين قد أخرج للوجود كتابه فى فلسفة التاريخ إبَّان انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهورها ؛ وأن ابن خلدون كتب « مقدمته » فى التاريخ فى أظلم عصور التاريخ الاسلامى ؛ وأن سقوط تفاحة عرضاً قد أيقظ نيوتن من سِنته وجعله يضع بحث الجاذبية ، أو جعله ـ كما يقول جون تيندل [1] ـ « يسير

---

١ ـ John Tyndell

من تفاحة سقطت إلى قمر هوى ،

عندما نشاهد أوضاعاً تنقلب ، وأنظمة تتغير ، وعلاقات ألفناها زمناً ما تضطرب ، يعترينا ، بادئ الرأى ، قلق شديد يحملنا على التفكير فيما آل إليه الحال : أسباب ونتائج « فالحاجة أم الاختراع » لا فى الشؤون العملية فحسب ، بل فى ميدان العقل ومضمار الفكر أيضاً . إذ أنه لا بد من ضرورة ملحّة لحمل الناس على اختراع آلة جديدة ؛ وكذلك لا بدّ من تغيير كبير فى سلوك الانسان ، وفى أساليب حياته لتغيير المذاهب الفكرية للمجتمع . وعلى هذا فان خير زمن لدراسة الجماعات الانسانية هو الزمن الذى يُصيبها فيه التطور . ذلك لأن الاستقرار النسبى للنظام الاجتماعى لا بد أن يضطرب حينذاك ؛ ولا بد كذلك أن تنشأ حالة ارتباك وتشوش واضطراب ، من تلك الحالات التى تصحب التطور عادة ؛ وكل هذه الأمور تستدعى فحص الافتراضات التى قامت عليها أركان المجتمع الانسانى على ضوء الأوضاع الجديدة . وقد يزيد كل ذلك فى الفرص المؤاتية لاكتشافات جديدة .

لقد كان الانسان منذ عرفه التاريخ فى حالة تطور مستمر دائم ، وكانت تقع أحداث طبيعية ومصطنعة تؤثر فى أوضاع الحياة البشرية ، ينتج عنها إما عرقلة حركات التطور إلى أجل مسمى ؛ أو تزويدها بقوى دافعة تسير بها قدُماً فى مضمارها . وقد حدث أن كثيراً من الرجال الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم قد شهدوا نهاية عصر وولادة عصر آخر . وقد كانت دائماً تتصادم قوتان : قوة تعمل على توحيد المجهود الانسانى عامة ، وتنفير الأمم والشعوب من العُزْلة ؛ وقوة تعمل على التفريق بين الناس كافة هى سبب أو نتيجة للخلاف والعداوة والبغضاء المتأصلة فى النفوس الانسانية . وقد وقعت أحداث حاسمة فى تاريخ النوع الانسانى فى أزمنة مختلفة ، ووجد فى كل زمن فلاسفة وعلماء حاولوا فحص حياة المجتمع وتحليلها للوصول الى

معرفة أسباب الحوادث ومدى تأثيرها فى النظام الاجتماعى . من هؤلاء العلماء الفيلسوف المسلم الملقب بالمعلم الثانى أبو نصر الفارابى . فقد وقعت فى زمانه أحداث كثيرة فى بلاد الخلافة الاسلامية ـ من فتن داخلية الى خروج العمال والامراء على الخليفة والاستقلال بالمقاطعات التى تحت إمرتهم دونه وارتباطهم بدار الخلافة برباط اسمى ؛ ومن تحكم الوزراء ورؤساء الجند بشخص الخليفة ، إلى مهاجمة الروم لأطراف بلاد الخلافة . لاحظ أبو نصر التطور الشديد الذى أصاب العالم الاسلامى فى أوضاعه والتغير الذى نزل بأساليب الحكم ونظامه ، فحدا به شعور فياض ممزوج بتقدير العجز الملازم للمساعى الإنسانية ، الى التساؤل عما اذا كانت هنالك مشكلة حقيقية تحتاج الى بحث فى أسبابها ونتائجها وفى وضع دواء ناجع لحلها .

إن من الظواهر المألوفة فى أيام الأزمات أن بعض المسائل قد تنجلى وتتكشف لعدد قليل من الناس ، ولكن عدداً وفيراً من هؤلاء قد يضع لها حلا معقولا فى آن واحد . وقد يتصور المفكر المعزول عن المجتمع والمستقل عن الجماعة أنه هو الوحيد الذى يشعر بجوهر المسألة الأساسية ، وهو فى الواقع قد غاب عنه أنه يعيش فى محيط اجتماعى عام ، وأنه يشارك الجماعة ، من قريب أو من بعيد ، فى شعورها العام وخبرتها الخاصة ، وفى حركتها الاجتماعية . إن حياة المجتمع المادية والعقلية والروحية على السواء تتخذ لذاتها صورة وحدة تامة لا تنفصم عراها ؛ وإننا فى تحليلنا لعقلية عبقرى فذ ، أو لعالم موهوب ، أو لزعيم اجتماعى خالد نجد أنفسنا مسوقين بالضرورة إلى ارجاع أسباب نبوغ هؤلاء الى المحيط الذى نشأوا فيه والى البيئة التى عاشوا فيها . أما قولنا « انه لا جديد تحت الشمس » فهو يشير فى الواقع الى أنه يمكن ارجاع جل الأمور الى أصول قديمة لها بقدر ما تسمح بذلك المعرفة الإنسانية .

بهذه المقدمة القصيرة نتقدم لدراسة كتاب أبى نصر المعروف « بآراء أهل المدينة الفاضلة » الذى حاول فيه أن يتصدَّى لبحث حالة المجتمع الإسلامى فى أيامه .

ولد أبو نصر فى النصف الثانى من القرن الثالث وتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ؛ وأصله « من مدينة فاراب فيما وراء النهر ، فيلسوف المسلمين غير مدافع ، دخل العراق واستوطن بغداد ، وقرأ بها من العلم الحكمى على يوحنا بن جبلاء المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر واستفاد منه وبرز فى ذلك على أقرانه وأربى عليهم فى التحقيق واشتهرت تصانيفه . . التى منها كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدّلة والمدينة الضالة . ابتدأ بتأليفه ببغداد وحمله الى الشام فى آخر سنة ٣٣٠ هـ وأتمه بدمشق سنة ٣٣١ [١] . »

ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول يبحث فى بعض أركان الفلسفة الإلهية كما عرفت فى أيامه ؛ والقسم الثانى يبحث فى المدينة الفاضلة وأهلها ؛ والقسم الثالث يبحث فى أضداد المدينة الفاضلة وهى المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة .

إن فلسفة الفارابى فى « آراء أهل المدينة الفاضلة » تتألف من فلسفة افلاطون وأرسطو وأفلوطين زعيم الأفلاطونية الجديدة . واليك بعض آرائه :

« القول فى الموجود الأول : الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها ، وهو برىء من جميع أنحاء النقص ؛ وكل ما سواه فليس يخلو من أن يكون فيه شىء من أنحاء النقص ، إما واحد وإما أكثر ..

---

١ - ص ٥ كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، الطبعة الاولى — بمطبعة النيل — القاهرة .

وهو أزلى دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة فى أن يكون أزلياً الى شيء آخر يمدّ بقاءه . . . وهو الموجود الذى لا يمكن أن يكون له سبب به أو عنه أو له كان وجودُه فانه ليس بمادة ولا قوامه فى مادة ولا فى موضوع أصلا ... وليست له صورة « لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلا فى مادة ... [1] »

والموجود الأول هو الله واجب الوجود . لقد رفع أفلاطون وأرسطو وافلوطين الله جل وعلا فوق الكائنات وقالوا بموجودين أزليين ، واجبى الوجود — فى رأيهم — : هما الله ، والمادة ! فلم يميزوا بين الخالق والمخلوق . ولكن الفارابى أثبت الوجود المطلق لله تبارك وتعالى [2] .

« القول فى كيفية صدور جميع الموجودات عنه ـ بالفيض : والأول هو الذى عنه وُجد ، ومتى وجد للأول الوجود الذى هو له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات ... التى وجودها انما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر ؛ وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو[3].

ويفيض من الأول وجود العقل الثانى (الذى يفيض عن واجب الوجود) والسماء الأولى ؛

ويفيض من الثانى وجود العقل الثالث وكرة الكواكب الثابتة ؛

ويفيض من الثالث وجود العقل الرابع وكرة زحل ؛

ويفيض من الرابع وجود العقل الخامس وكرة المشترى ؛

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢

٢ ـ الفارابى تأليف الخورى الياس فرح ، ص ٥٨

٣ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٧

ويفيض من الخامس وجود العقل السادس وكرة المريخ ؛

ويفيض من السادس وجود العقل السابع وكرة الشمس ؛

ويفيض من السابع وجود العقل الثامن وكرة الزهرة ؛

ويفيض من الثامن وجود العقل التاسع وكرة عطارد ؛

ويفيض من التاسع وجود العقل العاشر والعقل الفعال وكرة القمر ؛

ويفيض من العاشر وجود حادى عشر ، وهذا الحادى عشر هو أيضاً وجوده لا فى مادة وهو يعقل ذاته ويعقل الأول ولكن عنده منتهى الوجود الذى لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود الى مادة وموضوع أصلاً وهى الأشياء المفارقة التى هى فى جواهرها عقول ومعقولات . وعند كرة القمر ينتهى وجود الأشياء السماوية وهى التى بطبيعتها تتحرك دوراً [١] » . « وأول نتيجة لفيض العقل الفعال هى توليد العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب [٢] » والعقل الفعال هو الذى يعطى العقل الهيولانى الذى هو بالقوة عقل شيئاً ما بمنزلة الضوء الذى تعطيه الشمس البصر [٣] .

والنتيجة أن الفارابى شرح الفيض وتسلسل الكائنات عن المبدع الأول على طريقة افلوطين زعيم الافلاطونية الجديدة ، ولكن نظرية الفيض

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢٥ .

٢ ـ الفارابى ص ٦٢ .

٣ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٢ .

نفسها هى له ، وقال بالخلق من لا شىء توكيداً للعقيدة الاسلامية [١] »

« السعادة : وهى الخـــير المطلوب لذاته وليست تطلب أصلا ولا فى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منهـا . وهى أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود الى حيث لا تحتـاج فى

---

١ - « وهذه النظرية فى الفيض هى للفـارابى دون غيره ممن سبقه من الفلاسفة . وهى لم تعرف لدى أرسطو ، وقد كانت السبب فى اتجـاه الفلاسفة من بعده الى القول « بأن النفوس الانسانية تفيض من آخـر العقول السماوية ، وتتلخـص فى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة وإنما يفيض عن الله سبحانه عقل أول ، ثم يفيض عن هذا العقل عقل ثان وثالث ورابع وهكـذا حتى ينتهى الفيض الى عشرة عقول ، آخرها العقل الفعال ، وهذا عند الفارابى واهب الصور ، والمصدر الذى تفيض منه صور الجماد والنبات والحيوان والنفوس الانسانية .

وقد اخذ الفارابى عن افلاطون فكرة التصوف العقلى فقال مثله بأن المعرفة الحقة هى السبيل الى خلاص النفوس من سجنها وعودتها الى عالمها العلوى .

واخذ عن أرسطو فكرة ان النفوس الانسانية صور لاجسامها ، وان المادة هى السبب الوحيد الذى يؤدى الى اختلاف الافراد فيما بينهم .

ومن ثم ذهب الى رأى غريب يقول بأن النفوس لما كانت صورا للاجسام فانها تتحد بعد خروجها منها بسبب زوال السبب فى اختلافها فتصبح نفسا كلية وتنقسم ثلاثة أنواع : منها ما اذا فارقت اجسامها اتحدت وسعدت ، وكلما جاءها فوج آخر من جنسها اتحد بها وزادت سعادتها ، ومنها نفوس تشقى ويزداد شقاؤها كلمـا انضمت الى بعضها ، ومنها نفوس غير كاملة لانها تحتاج الى الجسم وتبقى مثقلة به ، فاذا جاء الموت انحلت اجسامها ، وفنيت هى . »

من كلمة فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٨ اغسطس سنة ١٩٥٠
للاستاذ مصطفى سليم

قوامها إلى مادة وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد » .

ولنبحث الآن فى القسم الثانى من الكتاب ـ المدينة الفاضلة وأهلها :

لقد عاصر الفارابى العهد الذى ابتدأ فيه أفول الامبراطورية العربية فى عهد العباسيين . « فكانت شمال افريقيا إمارة مستقلة تحت الحاكم الذى أسس دولة الأغالبة والذى جعل منصبه وراثياً فى أسرته ، واستقلت ولاية إثر الأخرى بسرعة فاقتطعت مصر وسوريا من الامبراطورية وأسست دول مختلفة فى فارس وأصبحت سلطة الخليفة العباسى لا تكاد تتعدّى تخوم مدينة بغداد ، بينما أصبح الخليفة نفسه تحت رحمة جيوشه الأجنبية التركية الفوضوية المتمردة ، فخُلع الخليفة المقتدر مرتين ، وفى نهاية حكمه المخجل الموسوم بسكر شديد وانهماك فى الشهوات والتبذير ، قُتل فى مناوشة مع أحد قواده فشُكَّ رأسه فى رمح وترك جسمه ملقى على الأرض حيث سقط [1] » .

« وسمت الخطة التى تدهورت اليها الخلافة خلال هذا الحكم بالانشقاق الكبير الذى أسس خلافة منافسة فى المذهب السنى ، فلم يحاول ، حتى هذا الدور ، حكامُ الاندلس الأمويون أن يدّعوا لأنفسهم زعامةَ العالم الاسلامى التى تمتع بها أجدادهم فى دمشق أيام الفتوحات العربية العظيمة ، واكتفوا بلقب أمير وسلطان وابن خليفة ؛ ولكن عبد الرحمن الثالث ، الذى وصل بالأندلس المسلمة الى مركز أسمى مما كانت عليه قبلا ، قرَّر أن يتَّخذ لنفسه لقب الخليفة ـ الذى يبدو أن العباسيين فى بغداد لم يعودوا أهلاً لحمله ، فأمر أن يُدعى بخليفة وأمير المؤمنين فى صلاة الجماعة وعلى الوثائق الرسمية ؛ وكأنه نظر نظرة شفقة واستخفاف إلى المقتدر الذى كان يُمثِّل

---

١ ـ ص ٣٠ الخلافة ـ سير توماس أرنولد . ترجمة جميل معلى .

أسرة العباسيين والذى كان ما يزال يستعمل ألفاظاً طنّانة كتاك [١] » .

وبعد وفاة المقتدر انتخب أخوه القاهر ليعقبه ، ثم خلع بعد حكم إرهابىّ دام سنتين ففقأت عيناه بابرتين حاميتين حتى الاحمرار وعُذّب ليبوح بالمكان الذى خبأ فيه كنوزه وألقى فى السجن وتُرك هناك مدة إحدى عشرة سنة لإصراره على الكتمان . وبعد أن أفرج عنه وُجد بحالة فقر مدقع يستجدى الصدقات فى أحد الجوامع ، بينما أقيم حفيده على العرش ثم نصّب المتآمرون الراضى عوضاً عنه ، وهو ابن المقتدر المقتول ، وكان آلة عقيمة فى أيدى الوزراء الأقوياء مدة سبع سنوات لا يملك من الخلافة سوى الاسم . ويقال إنه آخر خليفة ألقى خطبة فى صلاة الجمعة . وبعد وفاته أعقبه أخوه المتقى ، ولكن بعد شهور قليلة اضطرته ثورة الجنود الأتراك أن يهرب من عاصمته ويلتجىء إلى الموصل حيث طلب حماية الأمراء الحمدانيين سيف الدولة وناصر الدولة اللذين كانا يتسابقان فى إكرام الشعراء العرب ورجال الأدب فى بلاطهم اللامع فى الموصل وحلب .

وقد اشتهر هذان الأخوان بأعمالهما العسكرية الجليلة ولكنهما اضطرا حالاً إلى التخلى عنه ليراعوا الأمور فى ممتلكاتهم الخاصة .

واضطرت مؤامرةٌ أخرى الخليفة التعيس أن يهرب من بغداد مرة ثانية ، ولكنه سلم نفسه مقهوراً ـ بعد استغاثات غير مجدية لمختلف الأمراء المسلمين لاسعافه ـ الى القائد التركى طوزون الذى كان سبباً فى كثير من همومه . ورغماً من أن طوزون استقبله أولاً بمظاهر الاحترام إلا أنه سمل عينيه بالنتيجة بحديدة حامية واضطره إلى التنازل عن الخلافة ونصب المستكفى مكانه . وفى السنة التالية مات طوزون ولكن الخليفة انتقل من يدى سيد إلى آخر وأجبر آنئذ الى الترحيب بالبويهيين فى عاصمته ؛ أولئك

---

١ ـ ص ٣١ ـ الخلافة ـ سير توماس أرنولد

الذين هدّدوا — بتقدّمهم الموفق من جنوب فارس — سلطة الجنود الأتراك التى كانت تخيف سكان العراق منذ أمد طويل . وقد تظاهر الأمير البويهى باحترام الخليفة وتقبل منه ألقاب الشرف ، ولكن القوّة الحقيقية كانت فى أيدى فاتحى العاصمة الاسلامية الحديثة . ثم سملت عينا المستكفى أيضاً [١] .

وهكذا شهد الفارابى فى وقت واحد ثلاثة خلفاء عباسيين أحياء كانوا تقلدوا منصب الخلافة السامى ، وكلهم حرموا نعمة البصر قسراً ، وكلهم سلبوا ثرواتهم وعاشوا فى عماهم على الاحسان وعلى الراتب الضئيل الذى كان يتصدّق به الحاكم الجديد عليهم . راعه ذلك المشهد ، وأخذ يبحث عن حل لمشكلة العالم الاسلامى ، فانكبّ على دراسة جمهورية افلاطون واقتبس منها كثيراً من آرائه السياسية ، وبدأ مدينته الفاضلة بفصل يبحث فى نشأة المجتمع :

« القول فى احتياج الانسان إلى الاجتماع والتعاون : — وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه . وكل واحد من كل واحد بهذه الحال . فلذلك لا يمكن أن يكون الانسان ينال الكمالَ الذى لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماع جماعات كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه وفى أن يبلغ الكمال . ولهذا كثرت أشخاص الانسان فحصلوا فى المعمورة من الأرض فحدثت منها الاجتماعات الانسانية : منها الكاملة ، ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث ، عظمى ، ووسطى ، وصغرى . فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة . والوسطى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة . والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن

١ — ص ٣٣ الخلافة — سير توماس أرنولد

أمـة . وغير الكاملة أهل القرية واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ثم اجتماع في منزل . وأصغرها المنزلة والمحلة . والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة . إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة . والمحلة للمدينة على أنها جزؤها . والسكة جزء المحلة . والمنزلة جزء السكة . والمدينة جزء مسكن أمة . والأمة جزء جملة أهل المعمورة .

فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنمـا يُنال أولا بالمدينة ، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها .

ولما كان شأن الخير في الحقيقة أن يُنال بالاختيار والإرادة ؛ وكذلك الشرور إنما تـكون بالإرادة والاختيار ؛ أمكن أن تجعل المدينة للتعـاون على بلوغ بعض الغايات التي هي شرور . فلذلك كل مدينة يمكن أن يُنال بهـا السعادة .

فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تُنال بهـــا السعادة في الحقيقة ، هي المدينة الفاضلة .

والاجتماع الذي به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل .

والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تُنال به السعادة هي الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون ، إذا كانت الأمة التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة [1] » .

والواقع أن بالإنسان حاجة إلى الاجتماع والتعاون . فلولا الحمـــاية والعناية التي ينالها الطفل الحديث الولادة من الأغيار لما عاش . وحمـاية الجماعة ضرورية له . ولـكن الجماعات تقوم بأعمال أخرى كثيرة ، زيادة

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٧٨

على العناية بالطفل وحمايته . فهى تهذّبه وتثقّفه وتقيّد سلوكه فى كثير من شؤون الحياة وشجونها . وعمل الجماعات الاجتماعية أنها تنقل « الميراث الاجتماعى » من جيل إلى جيل . إن ضغط الثقافة على الفرد يتم على الغالب بوساطة الجماعة . فالطفل يبدأ تلقّن الثقافة من جماعة أسرته . فتكون الأسرة على هذا — كما قال جولدِنْوَيْزَر بحق — « مركز حوالة المدينة[1] ».

ولا تتوقف جلالة الجماعة ومنزلتها على نقل الثقافة فحسب ، فان حياتها ذاتها تترك طوابعها الكثيرة على الفرد . فهى تصقل شخصيته . وتتوقف على الخبرة التى يكتسبها الفرد بين الجماعة أن يكون زعيما أو تابعا ؛ تعاونيا أو مستقلا ؛ اجتماعيا أو معتزلا للناس .

وحاجات الانسان الضرورية قليلة العدد ، كالحصول على الطعام وحفظ النسل وتربيته . ومن الطبيعى أن نجد المؤسسات والنظم فى كل الأزمان تدور حول هذه الحاجات .

وهنالك مجموعة من المؤسسات الاجتماعية قد نظمت على أسس اقتصادية ؛ مثال ذلك الشؤون الصناعية والمالية والزراعية فى المجتمعات الحديثة . أما فى أوائل عهود الانسان فقد كانت النظم الاقتصادية تدور حول جمع الأطعمة وصيد الحيوانات والأسماك . وكان تحضير الطعام وتجهيزه من خصائص الأسرة . ثم نشأت مع الزمن الملكية بشكل الاختصاص الفردى بالألبسة وأدوات الزينة والأثاث والأدوات والآلات والخيول والأنعام وما إلى ذلك . ونشأت قواعد الملكية الفردية . ثم نتج ، عن تقدم التجارة والنقود ، التخصّص وتوزيع العمل ، بين المؤسسات الاقتصادية .

---

١ — A. Goldenweiser, Early Civilization, p.238-9

وهنالك مجموعة أخرى من المؤسسات الاجتماعية تقوم على أساس الجنس. والاسرة ميدان هذه المجموعة. لقد وُزِّع العمل فى الأسرة منذ القديم فاختُصَّ الرجل بالصيد والحرب حين الحاجة، واختُصَّت المرأة بالعناية بالأولاد.

ثم نجد مجموعة ثالثة من المؤسسات الاجتماعية قوامها العقيدةُ. اعتقد الانسان، منذ القديم، بأن هناك قوةً تُدير هذا الكون، فأخذ يتقرَّب اليها ويعبدها بشتى الطرق: فنتج عن ذلك وجود أنظمة معينة لكل عمل وحَدَث يقع فيه الانسان. فهنالك صلوات واحتفالات خاصة لحالات الولادة والزواج والموت والحرب وهكذا...

وهنالك مجموعة رابعة من تلك المؤسسات وهى تشتمل على رعاية مصلحة الجماعة كلها. وقد نتج عن هذه المؤسسات فى الأزمنة الحديثة وجود «الدولة». ولما كانت مصلحة الجماعة كلها تضطرب إبان الحروب، لذلك فان الحروب قد صقلت نظام الدولة ونمَّته الى حدّ بعيد. وأصبح من واجبات الدولة توزيع العدل وحمايةُ الضعيف من القوىّ ومعاقبةُ الأفراد الذين يعيثون فى الأرض فساداً. وقد وسَّع مناطق نفوذ الدولة وإدارتها تقدمُ وسائل النقل والاتصال تقدماً زاد فى عدد الشعوب والعناصر التى تدخل فى حكم الدولة الواحدة.

لقد تضمن بحث الفارابى الذى اقتبسناه آنفاً هذه المجموعات بعينها؛ وهناك مجموعات أخرى قد تدخل فيه كأنظمة التعليم والصحة وغيرها ألمع اليها فى صفحات أخرى من كتابه. وعبَّر الفارابى عن الدولة بالمدينة الفاضلة، ورأى أن الخير والشر يُنالان بالاختيار والإرادة، ولكن الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولاً بالمدينة، لا بالاجتماع الذى هو أنقص

منها . وهذه هى نظرية « الميراث الاجتماعى [١] » سافرةً ظاهرة .

« والمدينة الفاضلة هى التى يُقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التى تُنال بها السعادة فى الحقيقة . والسعادةُ هى أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود إلى حيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة . والافعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة . والاجتماع الذى به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماعُ الفاضل . والأمةُ التى تتعاون مُدُنها كلها على ما تنال به السعادة ، هى الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمة التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة .

وللمدينة الفاضلة أجزاء مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات : وفيها إنسانَ هو رئيس ؛ وآخرون تقرب مراتبهم من الرئيس ؛ وفى كل واحد منهم هيئة وملكة (مكتسبة) يفعل بها فعلا يُقتفى به ما يريد ذلك الرئيس .

وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء هم فى الرتبة الثانية .

ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدِمون ولا يُخدَمون ، ويكونون فى أدنى المراتب . ويكونون هم الأسفلونَ [٢] . »

وقد شبه أبو نصر تآلف أعضاء المدينة الفاضلة وتعاونها بانتظام أعضاء البدن وتناسقها فى تأدية وظائفها : «فالبدن الصحيح تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه . وهى مختلفة متفاضلة الفطرة

---

١ - A Hand bcck of Sociolcgy, p.4 [Social Heritage]

٢ - المدينة الفاضلة للفارابى ص ٧٨ - ٨٠

والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب ، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاءً لما هو غرض ذلك العضو الرئيس . غير أن أعضاء البدن طبيعية . وأجزاء المدينة ، وإن كانوا طبيعيين ، فان الهيئات التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل إرادية . على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لشئ دون شئ . غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التى لهم وحدها ، بل بالملكات الارادية التى تحصل لها وهى الصناعات وما شاكلها » .

واننا نرى أن الفارابى أصاب بقوله « وأجزاء المدينة وان كانوا طبيعيين ، فان الأفعال التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل ارادية » ففرّقَ بين ما يسميه المحدثون « البيئة الطبيعية » و « الميراث الاجتماعى » . قالوا :

ان البيئة التى تنمّى فى الانسان قواه المختلفة وتغرس فيه مؤهلاته وكفاءاته هى واسعة عريضة . وفيها العادات والمؤسسات والكتب والاجتماعات المتنوّعة . ولا تمتّع الطبيعة الحيوانات الدنيا بهذه البيئة . انها تولد فى بيئة تتألف من الارض والشمس والسماء والماء والشجر والنبات والحيوانات الأخرى التى تشاطرها تلك البيئة . وهذا ما يسمى « البيئة الطبيعية » . وقد اقتصر بحث علماء الأحياء عليها .

وقد بحث فيها هربرت سبنسر تحت عنوان « البيئة الحية » و « بيئة الجماد » . ويشاطر الانسان الحيوانات الأخرى هذه البيئة .

أما النوع الثانى من البيئة فهى ، التى يستقل بها الإنسان دون باقى الحيوانات . وهى تتألف من الأبنية والآلات والأدوات والكساء والفن والعلم والدين وجميع الأساليب والطرق للقيام بالأعمال التى يمارسها الناس .

وقد سميت هذه البيئة التي ليست نباتاً وحيواناً ، ولا أرضاً وهواء ، بأسماء مختلفة . فأطلقوا عليها « الميراث الاجتماعي » تمييزاً لها عن « المـيراث الطبيعي » . ويسمى علماءُ الاجتماع هذه البيئة « الثقافة » . وهذه العبارة متى استعملت في علم الاجتماع تضم معنى أوسع من المعنى المحدَّد لها عند رجال الأدب والفن . وان لفظة « التمدن » تصف الثقافة في أعلى درجاتها [١] .

« أما رئيس المدينة فليس يمكن أن يكون أى انسان اتفق ، لأن الرئاسة انما تكون بشيئين :

الاول — أن يكون كامل العقل قويَّ الإدراك يوحى الله عز وجل اليه بتوسط العقل الفعّال ، فيكون ما يفيض من الله تبارك وتعالى الى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعال الى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم الى قوّته المتخيّلة ، فيكون بما يفيض منه الى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام »

والثاني — أن تكون قوَّته المتخيّلة قوية كاملة جداً لا تستولى عليها المحسوسات الواردة اليها من خارج استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا تخدمها للقوة الناطقة بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التي تخصها ، يفيض العقل الفعّال بصور الجزئيات فتتخيلها القوة المتخيلة وتحاكيها بمحسوسات فى نهاية الجمال والكمال ويصير الانسان بهذا الفيض الى قوّته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن .

فهذا هو الرئيس الذى لا يرؤسه انسان آخر أصلاً وهو الامام وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها ، ولا يمكن أن تصير هذه الحال الا لمن اجتمعت فيه بالطبع

---

١ - A Hand book of Sociology, by Ogborn & Nimkoff

Mannheim, p.4

اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها . وهى أن يكون : تـــامَّ الأعضاء ؛ جيِّد الفهم والتصوّر لكل ما يقال له فيتلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ؛ جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه ، ولما يسمعه ، ولما يدركه ؛ جيِّد الفطنة ، ذكياً ، إذا رأى الشئ بأدنى دليل فطن له ؛ حسن العبارة ، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يُضمره إبانة تامة ؛ مُحبــاً للتعلم والاستفادة ؛ غير شره على المأكل والمشرب والجماع ؛ محباً للصدق وأهله ، مُبغضاً للكذب وأهله ؛ كبير النفس محباً للكرامة ؛ الدرهمُ والدينارُ وسائرُ أعراض الدنيا هينة عنده ؛ محباً للعدل وأهله ، ومبغضا للجور والظلم وأهلهما ؛ قوى العزيمة عـلى الشئ الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل ، جسوراً عليه مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس » .

وليس من شك فى أن أبا نصر نظر فى صفات رسول الله ﷺ فاقتبس منها الاثنتى عشرة خصلة السالفة الذكر . وحصر الرئاسة فيه ﷺ قائلاً : « واجتماع هذه كلها فى إنسان واحد عسيرٌ ، فلذلك لا يوجد من فطر عـلى هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقلُّ من الناس » .

أما الرئيس الثانى ومن يخلفه من الرؤساء فيجب أن تتوفر فى كل منهم ستُّ شرائط : أن يكون حكيماً ؛ أن يكون عالمـاً حافظاً للشرائع والسنن والسِّــيَر التى دبَّرها الاولون للمدينة ، محتذياً بأفعاله كلها حذوَ تلك بتمامها ؛ أن يكون له جَودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيـه شريعةٌ ويكون فـيما يستنبطه من ذلك محتذياً حذو الأئمـة الأولين ؛ أن يكون له جَودةُ رَوِيَّـة وقوةُ استنباط لما سبيله أن يعرف فى وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التى تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأوَّلون ويكون متحرِّياً بمــا يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة ؛ أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين والى ما استنبط بعدهم مما احتذى فيه

حذوهم ؛ أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب ، وذلك أن تكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة [١] » .

وهذه الشروط التى اشترطها أبو نصر لرؤساء المدينة هى فى الواقع مؤهلات الإمامة فى الشريعة الاسلامية الغراء كما بسطها الفقهاء ، ما عدا شرطين ، تجاوز عنهما الفارابى ، وهما شرط النسب الذى يحصر الخلافة فى قريش ، وشرط الحكمة الذى جعله جزء الرياسة . قال الماوردى :

« وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة : أحدها العدالة على شروطها الجامعة ؛ والثانى العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام ؛ والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ؛ والرابع سلامة الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض ؛ والخامس الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ؛ والسادس الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو ؛ والسابع النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الإجماع عليه [٢] » .

وليس الفارابى هو الوحيد بين علماء المسلمين الذى لم يشترط أن يكون الخليفة قرشيا ، فقد روى الماوردى « أن ضراراً شذ فجوزها فى جميع الناس » .

وقد قصد أبو نصر أن يكون الحكم فى مدينته مطلقا أوتوقراطياً يقوم بأعبائه رئيس واحد ، إن وجد ، « فاذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه تلك الشرائط ، ولكن وجد اثنان ، أحدهما حكيم والثانى فيه الشرائط الباقية ، كانا هما رئيسين فى هذه المدينة ؛ فاذا تفرقت هذه فى جماعة ، وكانت

---

١ ـ المدينة الفاضلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩

٢ ـ الأحكام السلطانية للماوردى ، ص ٤ ـ ٥

الحكمةُ فى واحد ، والثانى فى واحد ، والثالث فى واحد ، والرابع فى واحد ، والخامس فى واحد ، والسادس فى واحد ، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساءَ الأفاضل . فاذا اتفق فى وقت ما أن لم تكن الحكمةُ جزءَ الرياسة ، وكانت فيها سائر الشرائط بقيت المدينةُ الفاضلة بلا ملك ، وكان الرئيسُ القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك ، وكانت المدينة تعرض للهلاك [1] » .

« وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون فى الازمنة المختلفة ، واحداً بعد آخر ، كلهم كنفس واحدة ، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله [2] . »

ولم يبين أبو نصر طريقة توليــة الرئيس : أيكون ذلك بالانتخاب أم يكون بالتعيين . مع أن فقهاء المسلمين بحثوا فى ذلك صراحة ونصوا على أن « الإمامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والثانى بعهد الإمام من قبل [3] » .

---

١ - المدينة الفاضلة ، ص ٩٠

٢ - المدينة الفاضلة ، ص ٩٢

٣ - الماوردى ، ص ٤ ، لخص سير توماس أرنولد فى كتابه الخلافة (ص ٣٧) عن شروط الانتخاب والتعيين ما نصه :

« أكد الماوردى متغاضيا عن وقائع التاريخ خلال القرون الأربعة السابقة من التقويم الهجرى أن منصب الخليفة أو الامام هو انتخابى وعدد مؤهلات الناخبين : فيجب أن يكونوا من ذوى السمعة الحسنة والحياة المستقيمة (فيهم العدالة الجامعة) ، ذكوراً بالغين ، ويجب أن يعرفوا الصفات المطلوبة فى الامام (فيهم العلم الذى يتوصل به الى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها) ، وأن يكون لديهم وعى وحكم كافيان ليحكموا باختيارهم (فيهم الرأى والحكمة المؤديان الى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف) ؛ وسعى بأسلوب عبقرى ليلائم نظرية الانتخاب مع ما عرفه من أن كل خليفة تقريبا كان يعين خلفه ، فأوضح أن العلماء لم

وقد شعر أبو نصر بالمركز التابع الذي انحدرت اليه الخلافة وقيام الدول الاسلامية المستقلة التى كانت تتغاضى عن سلطان الخليفة ، وشاهد أن الخلفاء فى زمانه لم يكونوا قادرين على ممارسة أى سلطة فى القضايا الدنيوية مهما تكن ، وإنما اقتصرت وظائفهم على شؤون الدين والعقيدة فقط ، فقسم سكان المدينة الفاضلة مراتب تقصد جميعا بأفعالها غايةَ الرئيس وتَصْدر عنه فى حركاتها وسكناتها :

« وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات . وفى كل واحد منها هيئة ومَلكة تفعل بها فعلا يقتضى به ما هو مقصودُ ذلك الرئيس :

وهؤلاء هم أولو المراتب الأُول ،

ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء فى الرتبة الثانية ،

يتفقوا على عدد الناخبين اللازم لمشروعية الانتخاب ، لأن بعضهم تمسك بأن يكون اتفاق إجماعي من كل المسلمين ذوى الأهلية فى كل قسم من العالم الاسلامى ، ولم يكن بالإمكان العملُ بانتخاب كهذا فى ظروف الحياة فى ذلك العصر ، فيذكر انتخاب أبى بكر كمثال ، فان أولئك الحاضرين لدى وفاة زعيم الجماعة السابق ﷺ كانوا كافين لتمثيل جموع المسلمين بكاملهم . والمشكلة الباقية هى عدد الأشخاص الذين يمكن فى حالة كهذه السماح لهم بتمثيل رأى الجماعة بكاملها ؛ فيذكر الماوردى أنه كان خمسة فى انتخاب أبى بكر ، وعين عمر قبل وفاته مجلساً انتخابيا مؤلفاً من ستة ؛ ولكن علماء آخرين ارتأوا بأن ثلاثة أشخاص يكفون ، لمماثلته مع عقد الزواج الذى يمكن أن يقوم به شخص واحد أمام شاهدين ، ويعتبر مع ذلك آخرون ، أن الانتخاب يمكن إعلانه بصوت منفرد . وهكذا توصل الماوردى الى النتيجة هى أنه يحق للخليفة تعيين خليفة . وتمكن بهذا من المحافظة على طابع المؤسسة الانتخابى » .

ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء.

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى الى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يَخدمون ولا يُخدمون ويكونون فى أدنى المراتب ويكونون هم الأسفلون ».

لقد قسم الفارابى المجتمع الى مراتب تُبيّن مركز الفرد بين الجماعة، سواء أكان رئيساً أم كان تابعاً. وحصر وظائف الناس فى المدينة على وجه التحقيق. وجعل من وظائف الرئيس الضمنية أن يضع الخطط ويبين الأهداف والمقاصد للمدينة ويصدر الأوامر ويراقب تنفيذها. أى إنه أناط به القيام بوظائف معينة، أو بعبارة أخرى جعل له صفة معينة حتمت عليه أن يقصد بتصرفاته مصلحة المجموع [1]. ومراتب الفارابى تسمى فى المصطلح الاجتماعى الحديث مراتب قانونية Formolized Statuses لا يهم المجتمع شخصية الأفراد الذين تخلع عليهم « الصفة Rôle » بقدر ما يهمه استمرار الحياة والإدارة اليومية وسيرهما على الوجه الصحيح من أجل المصلحة العامة. ومراتب الفارابى الاجتماعية تكاد تشبهه الهرم الأبتر (Truncated Pyramid) شأنها فى ذلك شأن جميع المجتمعات المؤلفة من طبقات أو مراتب اجتماعية، تقوم أدناها على القاعدة وتنتظم المراتب الأخرى فوقها صُعدا، الدنيا تحت العليا الى اعلى المراتب. ومما لا شك فيه أن أدنى المراتب فى تقسيم الفارابى كانت طبقة العبيد، وأن أعلاها كان الخليفة، ودونه الملوك، ودونهم الوزراء، ودونهم العمال، ودونهم رؤساء الجند، والجنود، وجمهور الأمة.

---

١ ـ قال الفقهاء إن التصرف على الرعية منوط بالمصلحة. وقد سمى علماء الاجتماع « التصرف المضاف الى المرتبة أو المركز صفة Rôle »

ولم يحدثنا الفارابى عما ينتظر كل مرتبة من « أنصبة فى الحياة Life chances » مع أن المفهوم ضمناً أن لأفراد كل مرتبة حقوقاً متماثلة فى « أنصبة الحياة » . ويُقصد « بأنصبة الحياة » التمتع بطيبات العيش ، كالحرية ، ومستوى المعيشة العالى ، والراحة والاحترام ، وكل الأشياء الأخرى التى يقدر لها المجتمع قيمة عالية . وأهل أعلى المراتب ، أو المتنفذون ، هم – كما يقول لاسويل[1] – « الذين يحصلون على أكبر قسط مما يمكن الحصول عليه » . ولكن أبا نصر بيّن أن أهل الصناعة الواحدة يتفاضلون بالكمية ، كأن « يكون كاتبان مثلا عَلِمَ أحدهما من صناعة الكتابة أكثر ، وآخر احتوى من أجزائها على أشياء أقل : مثل أن هذه الصناعة تلتئم باجتماع علم شئ من اللغة وشئ من الخطابة وشئ من جَوْدة الخط وشئ من الحساب ، فيكون بعضهم قد احتوى من هذه على جَودة الخط مثلا ، وعلى شئ من الخطابة ؛ أو آخر احتوى على اللغة وعلى شئ من الخطابة وعلى جودة الخط ، والآخر على الأربعة كلها » . فهؤلاء مع أنهم من مرتبة واحدة يجب أن لا يتساووا فى « أنصبة الحياة » طبعاً ؛ بل ينال كل منهم نصيبا بمقدار كفاءته ومؤهلاته .

ولنبحث الآن فى القسم الثالث من الكتاب وهو مضادّات المدينة الفاضلة .

لقد وضع الفارابى الأسس لإدارة الحكم فى العالم الاسلامى وبيَّن أفضلَ الأنظمة فى رأيه لاقامة حكم عادل يتوخَّى مصلحة المجتمع فى أيامه ، وبيَّن أن تصرُّف الرئيس يهدف الى بلوغ السعادة للامة جميعا ، ولما لم تكن الأحوال فى الامبراطورية الاسلامية تتلاءم مع هذه الأهداف ، أفرد أبو

---

١ – Harlod Lasswell « How gets, What, When, and How (p.3,1936

نصر الفصول الأخيرة من كتابه فى وصف الحياة العامة فى البلاد الاسلامية فى أيامه متستراً وراء تعريفات وضعها لما سماه مضادّات المدينة الفاضلة. فالناس فى زمانه «لم يعرفوا السعادة ولا خطرت ببالهم، إن رشدوا إليها لم يقيموها، ولم يعتقدوها، وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى تظن أنها هى الغايات فى الحياة وهى: سلامة الأبدان، واليسار والتمتع باللذات، وأن يكون المرء مخلى هواه، وأن يكون مكرماً، ومعظماً. فكل واحد من هذه سعادة عند أهل المدينة الجاهلة». ثم يجد من الناس فى زمانه «من قصدهم الاقتصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح والتعاون على استفادتها». ومنهم من «يتعاونون على بلوغ اليسار والثروة ولا ينتفعون باليسار فى شئ آخر، ولكن على أن اليسار هو الغاية فى الحياة. ومنهم من يتمتعون باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح، وبالجملة اللذة من المحسوس والمتخيل وايثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو. ومنهم من يتعاونون على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم ممجدين معظمين، قاهرين لغيرهم، أحراراً يعمل كل واحد منهم ما شاء، لا يمنع هواه فى شئ أصلا». والأمة الاسلامية فى عهده كانت «آراؤها الآراء الفاضلة وهى تعلم السعادة والله عز وجل والعقل الفعال وكل شئ سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدوه، ولكن أفعالهم أفعال أهل المدينة الجاهلة». وكل واحد من ملوكهم انما يدير المدينة التى هو مسلط عليها ليحصل هواه وميله». والخليفة ما يزال نظرياً رئيس الدولة الاسلامية، وكيفما قدر لملك أن يتقلد السلطة، فانه كان يجد من السياسة أن يعترف للخليفة بأنه المصدر النظرى لجميع السلطات، كما فعل بنو بويه فى أيام الفارابى ـ فانهم بالرغم من أن احتلالهم لبغداد كان

أوج توسّع ممتلكاتهم وبالرغم من أن الخليفة العباسى كان أسيراً فى معيتهم فقد وجدوا من السياسة تمويه استقلالهم التام بمظاهر من الخضوع ، وإعطاء حكمهم مظهراً من الشرعية بقبولهم الألقاب منه . وهذا هو خلاصة وصفه لحياة المجتمع الاسلامى وملوكه فى أيامه .

بقى علينا أن نبحث فى الاستعباد والعدل كما ذكرهما الفارابى :

« تروم كل طائفة من الناس أن تسلب جميع ما للأخرى من (حقوق وطيبات) وتجعل ذلك لنفسها ، ويكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال ؛ فالقاهرة منها للأخرى على هذه هى الفائزة وهى المغبوطة وهى السعيدة . وهذه الاشياء هى التى فى الطبع ، إما فى طبع كل إنسان أو فى طبع كل طائفة ، وهى تابعة لما عليه طبائع الموجودات الطبيعية . فما فى الطبع هو العدل ؛ فالعدل إذاً التغالب ، والعدلُ هو أن يُقهر ما اتفق منها . والمقهور إما أنه قُهر على سلامة بدنه أو هلك وتلف . وانفرد القاهر بالوجود ، أو قُهر على كراهته وبقى ذليلا ومستعبداً ، تستعبده الطائفة القاهرة ويفعل ما هو الأنفع للقاهر فى أن ينال به الخير الذى عليه الغالب ويستديم به . فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضاً من العدل ، وأن يفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر هو أيضا عدل . فهذه كلها هى العدل الطبيعى وهى الفضيلة ، وهذا هو العدل الطبيعى فى رأى أهل المدينة الجاهلة والضالة [1] . »

إن هذه هى النظرية الرومانية فى الرق والاستعباد . قالوا : « إن هنالك عقداً ضمنياً بين الغالب والمغلوب يجعل للغالب حق تملك عدوه المقهور كعبد فى مقابل الابقاء على حياته من القتل » .

فالعدل إذاً — على ما نقل الفارابى — هو التغالب . « وأما سائر ما

---

١ - آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١١٢

يسمى عدلاً مِثلُ مافى البيع والشراء ومثل ردّ الودائع . . . فان مستعمله إنما يستعمله أولا لأجل الخوف والضعف وعند الضرورة الواردة من خارج » . وذلك أن تكون طائفتان تتداولان القهر فيطول بينهما ثم تصطلحان وتشترط كل واحدة منهما أنها لا تروم نزع مافى يدى الأخرى ، إلا بشرائط وهى الموضوعة فى البيع والشراء والتى نشأت من الخوف والضعف . وقد يضطر شيءٌ واردٌ من خارج الطائفتين أن تأتلفا موقتاً وتجتمعا ريث الحاجة فتتبادلان البيع والشراء فاذا زال ذلك الوارد من خارج تنافرتا وافترقتا ووقعتا فى الداء السبعى من آراء الانسانية .

تلك هى مدينة الفارابى الفاضلة ، وأولئك هم أهلها الذين لهم أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها ، وأشياء أخرى من علم وعمل ـ تخصُّ كل رتبة وكل فرد منهم . وغاية تلك الأشياء جميعا إبلاغهم السعادة فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

الفصل الرابع

يوتوپيا

سير توماس مور

الكتّاب فئتان : فئة جذبت الناسَ الى إنتاجها الأدبي لِما اشتمل عليه ذلك الإنتاج في ذاته من الطرائف ، وبدائع الوصف ، وجوامع الكلم ، وجمال الأسلوب ؛ وفئة كان للحظّ والصدفة ، أو لقيام لفيف من الناس بالدعاية لها ، أثرٌ كبيرٌ في تقديمها للمثقّفين ، وتقريبها من الناس ، وإقامتها رمزاً لِلونٍ خاصّ من الأدب ، أو مثالا لطابع مدرسة مخصوصة في الفلسفة ، أو مذهب معين في التفكير . إلى هذه الفئة الثانية يُنسب سير توماس مور ؛ فقد كان زعيماً لعصر من العصور في انكلترا أو رمزاً لمُثُله العليا .

كان أول شخص عارض في انكلترا جمهورية افلاطون ونسجَ على منوالها . سمى كتابه « يوتوپيا » فأخرج بذلك للعالم الغربي عالماً وَوَصْفاً ، كثيراً ما أسيء استعماله . يقولون : إن هذه أهداف «يوتوپية» ويعنون بذلك أنها مُثل عُليا يتخيّلها المرء ولا يستطيع تحقيقَها . لقد رسم مور صوراً للمسائل الحديثة كما أنتجها العقل الانكليزي في ظل فلسفة أفلاطون . وعلى ضوء مبادئها . وفي الواقع إن المسائل التي أخذت على مور لبّه واستأثرت بتفكيره ، واستغرقت كل ساعات حياته ، لا تكاد تختلف كثيراً عن المسائل التي تُزعجنا اليوم ويستعصى علينا إيجاد حل مناسب لها . إن بعضا من تلك المسائل تكاثر وتزايد باتساع جواهره وانضمام أغراض جديدة اليه ، وتكوّن من ذلك الاتساع وهذا الانضمام مجموعة كبيرة من المشكلات أقضّت مضاجع المفكرين والساسة والعلماء اليوم وحيّرت أوهامهم .

ويوتوپيا تتألف من كلمتين يونانيتين ، معناهما « ولا في مكان » . وقد كتبت سنة ١٥١٦ ويتبين منها مقدار ما أصاب مؤلفها من الاضطراب وما ساوره من القلق بسبب ذيوع آراء معينة في صلة الدولة بالكنيسة في أيامه . لقد قاوم مور الملك هنرى الثامن في ادّعائه بأنه رأس الكنيسة ، فأدّى ذلك إلى إعدامه في سنة ١٥٣٥ م ؛ وكان لموته رنة حزن وأسى اجتاحت أوربا بأجمعها . لقد ولد مور في سنة ١٤٧٨ م . كان مور عالماً وفقيها . وقد تأثر بأبحاث سيرجون كولِتْ ، زعيم علماء عصر النهضة في انكلترا ، وتعشق نظريات وأفكار إيرازْمُوس ، العالم الاجتماعي الهولندى . وقد رُسم مور قاضياً لقضاة انكلترا في سنة ١٥٢٩ خلفاً للكاردينال ولزلى .

تظهر لنا من الصورة التي رسمها لمور معاصروه ، ومما وصل إلينا من اعترافاته وأحاديثه ، المقصودة والعرضية ، أنه كان رجلا ذكياً حادّ الذهن متوقّد القريحة صابراً مثابراً على العمل يتعشق النكتة والدُّعابة ويميل إلى السخرية والتهكم ، واسع الأفق والاطلاع . قلده فقهه وعلمه أرفع المناصب في بلاط مليكه ، ولكن ترفعه عن منادمة الملك خلق في نفسه موجدة على مور كانت السبب في هلاكه آخر الأمر .

يبدو أن مور بدأ حياته واختتمها معتنقا المذهب المحافظ في الدين . كان محيطاً بعادات عصره ، مُلماً بعقائده ومذاهبه ؛ وقد لعب دوراً جليلا في حياة بلاده العامة . إن اهتمام الناس بدراسته لا ينصبُّ على شؤونه الطبيعية التي يشارك فيها مور بقية أبناء عصره ، ولكنه يتمركز فيما بدا في مور وظهر عليه من الشك في كل ما انطوت عليه الظواهر الاجتماعية من حقائق مريرة نبهه الى وجودها وأثار كوامن نفسه عليها ما درسه في تراث افلاطون ، فقام بتدوينها والبحث فيها . وقد يتساءل المرء ما اذا كان هذا الشك لا يتفق مع الطبائع الانسانية ؟ وقد يتساءل كذلك عما اذا كان كبار

الساسة وكبار علماء الاديان وكبار رجال الإدارة لم ينتقدوا فى قرارات نفوسهم المبادئ والأصول والأركان التى قامت عليها أعمالهم؟ غير أننا نجد بينهم نسبة ضئيلة جاءت علناً وصراحة باعترافات تشبه من قريب أو بعيد ما خلفه لنا سير توماس مور. كان مور كاثوليكيا متعصبا لمذهبه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يُصوّر للناس مُجتمعاً لا يدين بالمسيحية ، ومع هذا انتشرت بين أفراده مبادئ الحكمة وتأصلت فيهم أسس الفضيلة . والواقع أن مور كان متمسكاً من الوجهة العملية بتعاليم المسيحية ، ولكنه خرج فيما كتبه ، عن عمد وتصميم ، على تلك التعاليم ، وقال مطمئناً بوجوب بناء مجتمع على أساس التسامح الدينى المطلق[١] .

وكتاب سير توماس مور (يوتوبيا) هو من الكتب الخالدة على الأزمان ، وقد أحيا به مذهب أفلاطون ، وأوجد فى الوقت نفسه مذهباً جديداً بسطه أمام الأجيال القادمة . ولكن الكتاب ، مع كل ما فيه من المسائل التى فيها مجال للقوة ، ما يزال لغزاً أمام القراء يُفسّره الناس ويحلون رموزه كما يشاءون وتشاء لهم مشاربهم ونزعاتهم المتغايرة . ولسنا نقصد إلى أن نقول إن هناك إبهاماً وغموضاً فى الآراء التى سطرتها هذه القصة الخيالية على لسان الذين اشتركوا فى الحوار ، ولا سيما فى نقد حالة انكلترا فى القرن السادس عشر مما تفردّ به الرحالة الوهمى (رفائيل هيثلودى) . فلم يكن هناك إبهام أو غموض ما . فقد أبان رفائيل بنقده اللاذع حالة البلاد ، وتجشّم أعباء بيان عيوب العالم ونقائصه ، ووضع صورة خلاّبة لعالم يخلو من العيوب والنقائص التى اشتكى منها . على أنه قد يحلو للمرء أن يبحث ويستقصى قبل أن يقرّر هل الغاية التى يرمى اليها

---

١ - More's - Utopia, Translated by Ralph Robinson, Introduction by H. G. Wells.

كتاب (يوتوپيا) هى انعكاس للصور التى ارتسمت فى نفس مور عندما سطر الكتاب . والواقع أن من يكتب رواية أو يُصنف حوارا لا يمكن أن يُعتبر مسئولاً عن جميع الآراء والأفكار التى تنطق بها رسائله على لسان جميع دُمى الرواية . وفى حالتنا الحاضرة نجد أن هناك ثلاثة أشخاص روائيين فى الكتاب ؛ هم مور نفسه ، وبطرس جايلز ، كاتب مدينة أنترپ — وهو الذى أنيط به نقد شؤون الحياة فى انكلترا خاصة ، وفى أوربا بوجه عام ، والمقرر عن جزيرة يوتوپيا المباركة . والشخص الثالث هو رفائيل — وقد اختص بالإفصاح عن كل المسائل الجوهرية فى الكتاب . بينما لم يكن الاثنان الآخران سوى مستمعين سهلى القياد يوافقان المتحدث على كل ما يقول . وقد يكون من الحقّ أن نقول هنا إن مور قد نسب إلى نفسه صراحة دفاعه المجيد عن الملكية الفردية أمام تمجيد الشيوعية وملاحظته فى الصفحة الأخيرة من الكتاب وهى تحذير صريح يوجه للقارئ حيث قال : « وإننى فى الوقت نفسه أصرح أنى لا أستطيع أن أوافق على كل ما قاله رفائيل[١] » . هل يوتوپيا مجموعة حكم لا يليق بالناس أن ينظروا اليها نظرة جدّية ، أم أنها فى الواقع قطعة أدبية أطلق كاتبها لنفسه عنان الخيال وملأها بأوتاد كثيرة يرتكز عليها فى نقد شتى المواضيع ؟ أم أن تصاول رفائيل وتجواله فى ميدان النقد كان صورة عكسية لما ارتسم فى نفس مور من الأمور المختلفة ، فقد ضاق ذرعاً بالحياة بين أقرانه ومعاصريه فاتخذ من الحوار الخيالى الذى اخترعه منفذاً يقذف منه بحممه المتأججة الى العالم ثم يبرأ الى الناس من كل مسؤولية تنتج عن أقوال ومحاورات أشخاص روايته ؟ ذلك لأن يوتوپيا — ولا يضير هذا الرأى أن نجيب على هذه الأسئلة بالايجاب أو النفى — كتاب عجيب بالنسبة الى سير توماس مور .

---

١ — ص ٢٠٣ Utopia, Ed. Blackie & Son. London

لقد ألف مور الكتاب فى سنتى ١٥١٥ - ١٥١٦ م عندما كان فى السابعة والثلاثين من عمره ، وكان قد تدرَّج فى سلم الرقىّ فى خدمة دولته إلى أن بلغ أرفع المناصب . وصفوة القول أنه ليس من المألوف أو المتعارف أن يقوم رجال الدولة وهم ما يزالون فى الخدمة الفعالة ، فيبينون أنواع الظلم ، وأصناف العذاب ، وألوان الجور والطغيان ، التى يقاسى ويلاتها مواطنوهم ؛ حتى ولو كان بيانهم على لسان شخص خيالى كرفائيل هيثلودى . ولعل مسألة أخرى توضح هذه الحال . لقد كان الواجب أن تكون يوتوپيا من أعظم كتب الأدب الكلاسيكى الانكليزى . بيدَ أنها كتبت باللاتينية وطبعت فى خارج إنكلترا سنة ١٥١٦ م ولم تظهر منها ترجمة انكليزية قبل سنة ١٥٥١ بعد أن أصبحت ترجماتها الألمانية والايطالية والافرنسية فى متناول الأيدى . ولو سلمنا أن مور كان يقصد إلى أن يزوّد العالم بشحنة من المواد الملتهبة والنظريات الثورية ، فقد كانت نيته تتجه لا محالة الى توجيه تلك الشحنة لا إلى جميع الناس ، وإنما اقتصر فى توجيهها « إلى الذين يحذقون اللغة اللاتينية ».

إن ابتكار وكتابة « اليوتوپيات » هو من صفات الضعف الملازمة للجنس البشرى ، ولولا أن كاتب « يوتوپيا » التى اغترف من بحرها جميع الذين حاكوها فى التفكير والكتابة كان من أشرف وأشجع الناس ، لحقّ لنا أن نقول إن تلك الكتب « هى سبيل الجبان الى الهروب من مجابهة الحقيقة » . وقد يقال إن القصص المبهجة (على اعتبار يوتوپيا قصة مبهجة) تتخلل محيطاً للقراءة أوسع من غيرها ، ذلك بالقياس الى « الاساطير » التى يتناقلها العامة جيلا بعد جيل ، فيرويها الساذج من الناس الى السذَّج منهم ونحن على يقين بأن الحقائق التى تدس فى القصص تصل الى كل مكان حتى أنها تدخل الى أحقر الأبواب . وقد يكون من الصواب هنا أن نشير إلى وضع مور الخاص نفسه : فقد كان يعيش فى ظلال حكم هنرى الثامن ، وكان من الخطر البالغ عليه أن يبرز آراءه سافرة ، فوجد من حسن السياسة

وبالغ التحفظ أن يعمد إلى سترها بقناع من الرواية والخيال . بيدَ أن الضعف الملازم لكل (يوتوبيا) هو صعوبة إيجاد سبيل لتحويل هذا العالم الفاسد إلى عالم صحيح . إن كُتّاب اليوتوبيات ينتقلون بك من هذا الوجود، إلى جزيرة فى بحر سحْرىّ أو إلى كوكب آخر ؛ أو انهم ينتقلون بك إلى المستقبل البعيد ، ومن هناك يُطلون على الماضى البعيد فيرثون لأيامه المظلمة ، أو انهم قد يهبطون بك الى جوف الأرض إن رأوا السلامة فى ذلك . ومهما تكن الحال فانهم يعرضون على القارىء أن يشاهد مجتمعاً إنسانياً تسوده الحكمة ويعيش أبناؤه سعداء لآجال طويلة . ولكن الصعوبة التى تَمثل أمامنا هى الصعوبات الإدارية للتنقل بين الحالين . إن يوتوبيا هى جنة سماوية . ومن السهل علينا أن نعيش فيها عيشة راضية راغدة متى دخلناها . ولكن الصعوبة هى فى السبيل الى بلوغها والدخول فيها .

وثمة مسألة أخرى تتعلق باليوتوبيات بوجه عام ؛ هى فى الواقع أيسر مما تبدو لأول وهلة . ذلك أننا إذا نظرنا إلى مؤلفى هذه الكتب نجدهم رجالا لهم منزلة رفيعة ومكانة مرموقة فى عالم الفكر ؛ يضعون منهاجاً لدولة سعيدة ويصفونها لنا ويكشفون عن إدارة المؤسسات الفاضلة فيها ؛ وفى كل الأحوال يؤكد هؤلاء الكتاب لنا أنه لم يكن يوماً ما على الأرض من الناس من شملتهم السعادة جميعا وعاشوا فى نعيم مقيم كسكان تلك المدن الفاضلة . ومع ذلك فاننا لم نطّلع بعد على يوتوبيا وضعها مؤلفها على وجه يُحبّب إلى انسان عاقل أن يعيش فيها إذا قُيض له أن يدخلها ويخرج منها . والواقع أنه على الرغم من وفرة وسائل الراحة ، وعلى الرغم من نقص ساعات العمل ، فليست هنالك يوتوبيا واحدة ليست الحياة فيها ـ على ما وصفوها لنا ـ متعبة مكدرة متبذلة خاسرة . وليست علة ذلك كونها بعيدة المتناول : فان الحياة فى يوتوبيا قد أصبحت فى حالة ثابتة على وتيرة واحدة

نملة وطبقا لمنهاج واحد ثابت لا يتغير . فما من حادث يقع أو حدث يتم ؛ وليس هناك أحد من السكان يخالف أحـــداً ويختلف معه فى الرأى . أما الحكومة ، ومهما يكون شكلها ، فقوامها رجال حكمـــاء يسيرون بها فى الطريق المستقيم فتستحق الشكر دائماً ولا يوجد من ينتقدهـا أبدا ، « فالحياة لون وحرارة ونور ، وجهاد متواصل لتوفير هذه الطيبات دائماً » . وقد بلغ الانسان فى يوتوبيا درجة الكمال ولم يبق أمامه من الأغراض مـا يجاهد من أجله .

ولـكن ليس هنالك من العوامل فى يوتوبيا ما يدفع الى الحياة والحركة . وعلى هذا فالنتيجة أن الحياة تصبح راكدة مضجرة . يقول رفائيـــل فى وصفه ليوتوبيا ببساطة تعبر عن سذاجته :

« إن من يعرف إحدى مدنهم ، يعرف ، فى الواقع ، جميع تلك المدن » .

إن هذا القول دون الحقيقة بكثير . فان من يعرف أحد أبناء يوتوبيا يعرف جميع سكانها ؛ وقد يتجاوز المرء الحدّ ويقول إن من يعرف يوتوبيا واحدة يعرف جميع المدن الفاضلة . فلم يقع حادث ما ، ولن يقع حادث ما فى أى منها .

ومع هذا وعلى الرغم من أن وصف الحياة فى المدن الفاضلة ـ ورَغَد العيش الاجتماعى فيها ـ قد يجعل الحياة ناعمة راضية مسلية ليس إلا ، وهى على هذا الوصف لا تستحق شيئا من الإعجاب ، إلا أن الأفكار التى أوحت بهذا الحلم اللذيذ تستحق كل عناية وتقدير . وأصدق ما ينطبق عليه هـذا الرأى هو يوتوبيا نفسها . لقد خلدت يوتوبيا على الأيام لا لأنها وصفت جنة (عماروت) الواقعة على نهر (أنيدر) وصفاً جميلاً خلاباً ، أو لأنهـا أظهرت جميع سكانها بمظهر الحكماء ؛ وإنما خلدت لأنها ، زيادة على كل ذلك ، أظهرت شرور الحياة الاجتماعية وظلم الأحكام فى أيامها من جهة ، ولأنها

كانت من الأسباب التي نبهت الأفكار وهيأت النفوس للبحث فى مساوئ حكم البلاد فيما بعد من الجهة الأخرى .

تقع يوتوپيا فى « كتابين » ، والكتاب الأول منهما ، مع أنه على الغالب يختص ببحث الأحوال السيئة التى كانت سائدة فى انكلترا خلال الحقبة من الزمن التى تقع سنة ١٥١٦ خلالها ، فان نقده اللاذع ينصبّ ، علاوة على انكلترا ، على الأمراء والزعماء الذين كانوا يحكمون غربى أوربا . أما الكتاب الثانى فينحصر موضوعه بالمقابلة بجزيرة يوتوپيا السعيدة التى أنجتها تدابير ملكها السابق (يوتوپوس) وإدارته الحكيمة من الشرور والآلام التى ما نزال نقاسى مثل ويلاتها . ونشاهد فى هذا الكتاب مور وبطرس جايلز يجلسان على ضفة خضراء فى إحدى جنات أنتيرب ، وهما يصغيان إلى أحاديث الرحالة الفيلسوف رفائيل هيثلودى . ويتمنيان أن يدخل رجل بمثل مقدرة رفائيل وخبرته التامة فى شؤون الحياة الحقيقية ، فى خدمة أحد الأمراء ، ولكن رفائيل يقرر أنه لا يصلح لخدمة أمراء هذا العالم الذين هم بوجه عام « يعملون لأن يحرزوا ويحوزوا ، بالحق أو الباطل ، ممالك جديدة ، دون أن يعملوا على إصلاح أساليب الحكم وتحسينها فى الممالك التى هى تحت إمرتهم وخاضعة لسلطانهم [١] . ونجد رفائيل ، وهو برتغالى المولد عالماً بشؤون وأحوال إنكلترا فى أيامه وخبيراً بها . لقد كان الزمان عصر فقر وتشرّد وسلب ونهب ؛ وكان من بين العوامل التى أعقبت هذا الوضع إنشاء الإقطاعات الواسعة المسوَّرة وجعلها أراضى محفوظة محظوراً دخول الماشية والأنعام إليها . « هنالك سبب آخر للسرقة وهو ـ على ما أعتقد ـ مختص بكم ومقصور عليكم أيها الانكليز دون غيركم : إن أغنامكم التى اعتادت

---

١ ـ ص ٣١ من الكتاب .

أن تظل وديعة أليفة لا تعرف النَّهم وتقنع بالعلف القليل أصبحت اليوم ـ على ما بلغنى ـ نهمة لا تبقى طعاماً إلا أكلته ، ولا تذر علفاً إلا ابتلعته ، حتى إنها تأكل الناس أنفسهم . وهى تستهلك وتتلف وتفنى مزارع كاملة وبيوتاً ومدناً بأجمعها . وما عليك لكى تعرف ذلك إلا أن تبحث عن أقسام المملكة التى تنتج أجود الأصواف وأغلاها ثمناً . فى تلك الأصقاع والبقاع أيها النبلاء ، وأيها الأفاضل : حقا إنكم أنتم ومثلكم بعض رؤساء الأديار ، وهم ـ ولا شك ـ رجال مقدسون ، لم يرضوا بالإيراد السنوى والأرباح التى كانت تنساب إلى آبائهم الأولين وأسلافهم من أراضيهم ، وبالأمن والسعادة ، بل أقلقوا بال الشعب ونغّصوا عيشه ، فلم يتركوا أرضاً تُستغل للزراعة ، وإنما اقتطعوها وسوروها وجعلوها مراعى محفوظة : وقد خربوا مدنا قائمة ، وهدموا بنايات من أركانها ، ولم يدعوا حائطاً يعلو سطح الأرض ، اللهم إلا الكنائس التى اتخذوا منها زرائب للأغنام . ومع أنكم فقدتم مساحات شاسعة من الأراضى للغابات ومفارز الصيد والحدائق العامة ، نشاهد هؤلاء الرجال المقدسين يحوّلون جميع المساكن وجميع أوقاف الكنيسة إلى أطلال نهبها البلى فأصبحت خراباً يباباً ينعق فيها البوم ويعشش فيها الغراب . وقد قام كل طماع جشع من جهته فسوَّر فى ناحيته عدة آلاف من الفدادين وجعلها اقطاعاً واحداً خالصاً له من دون الناس . أما المزارعون وأصحاب الأغنام فقد أخرجوا من ديارهم ، تارة بالخديعة والحيلة ، وتارة بالضغط والظلم والإكراه ، وطوراً اضطرهم إقلاق الراحة والأذى إلى بيع أملاكهم بأسعار بخسة دراهم معدودات : وعلى ذلك فقد أجبرتهم الظروف على النجاة بأنفسهم فقراء منهوكى القوى مهيضى الأجنحة رجالاً ونساء ، أزواجاً وزوجات ، أيتاماً وأرامل ، أمهات ثكلى بأطفالهن ، كثيرى العدد قليلى المؤن والعدد لأن الزراعة تستلزم سواعد كثيرة . يهجرون بيوتهم التى ألفوها هائمين على وجوههم لا يجدون ملجأ يأوون

اليه . ومع أن أثاثهم وأمتعتهم لا تكاد تساوى شيئا ، فان خروجهم من ديارهم بالقوّة يحملهم على التخلى عنه بثمن بخس جداً . وبعد أن يهيموا على وجوههم وينفقوا ما بأيديهم من النقود هل يجدون أمـــامهم سبيلا للعيش سوى اللجوء إلى ارتكاب السرقات ، وعندها نرى فريقاً منهم يُشنقون وفريقاً يجوبون البلاد يتسولون ، ثم يقبض عليهم ويزج بهم فى غيابات السجون لأنهم شريرون لا يعملون عملاً ما . والواقع أنهم لا يجدون من يعطيهم عملا وهم راغبون جداً فى العمل ويمقتون البطالة ويمجون حياتها[١] » .

وهكذا تُـصوِّر لنا (يوتوبيا) كيف أن أفاضل الرجال يُرغمون على التسكع فى الطرقات مع المجرمين المحترفين ، ويُقدر أن تكون خاتمة مطافهم أن يقتلوا على أعواد المشانق . أما المصدر الثانى الذى ينشأ فيه السارقون ويتكاثرون فهو قصور النبـلاء الطفيليين ، لأن هؤلاء الناس لا بد لهم أن يعمدوا إلى العيش من السؤال والسرقة عندما يفقدون وظائفهم . ولما كان هذا الأمر هو من النغمات المتكررة فى يوتوبيا الملازمة لأبحاثهـا سندع رفائيل هيثلودى يحدّثك عنه :

« تجدون بينكم عدداً كبيراً من الشرفاء هم أكسل من يعاسيب النحل يعيشون عالة على الآخرين ؛ عالة على كدّ فلاحيهم وكدحهم ؛ وتجدون هؤلاء السادة ، يأخذهم الغضب ويرتكبون جميع الموبقات فى سبيل الحصول على إيرادهم . . . ولا يعيشون وحدهم عاطلين عن العمل كسالى ، بل يجرّون وراءهم ذيولا طويلة من الخدم الذين لم يتعلموا قط صنعة أو حرفة يتعيشون منها . وعندما يموت سيد هؤلاء الناس أو يصابون بمرض ما يطردون إلى خارج الأبواب . . . وعندما يجوعون لا يجدون لهم مندوحة عن السرقة يتعيشون منها . وماذا تنتظر منهم أن يفعلوا ؟[٢] » .

---

١ - ص ٣٩ - ٤١ ٢ - ص ٣٥ - ٣٦

ويؤدى بنا هذا البحث الى النظر فى شدّة قانون العقوبات وصرامته، كما تظهر من جعل الاعدام عقوبة لكل سارق مهما تكن ظروفه . على أن رفائيل هيثلودى قد رفع عقيرته فى حديث له ضد عقوبة الاعدام بوجه عام . وقد اعتبرها مخالفة للقانون الإلهى وافتئاتاً عليه . « فقد نهانا الله عن القتل . أنستعمل قتل الانسان من أجل دريهمات قليلة[١] ؟ » . لقد كان سوء الحكم فى كل مكان ، وجشع الأمراء والحكام الذى لا حدّ له ، وإهمال هؤلاء شؤون رعاياهم الحيوية ، وسوء تصرف الاغنياء العاطلين عن كل عمل ، وأعمال الشقاوة والإجرام التى يقوم بها المتلصصون ، وانتشار أعمال السلب والنهب ، وشنق الناس دون ما تمييز ، ومخالفة تعاليم الدين ـ كل هذه العوامل مجتمعة ـ التى سادت العالم بوجه عام ، ولازمت الحياة الاجتماعية فى انكلترا آنئذ ، وهى العوامل نفسها التى ألهمت رفائيل هيثلودى أبحاثه فى (يوتوپيا) . وبعد انقضاء فترة من الزمن خُصِّصت لتناول طعام الغداء جلس مستمعوه مرة أخرى على الضفة الخضراء ذاتها ، فبدأ رفائيل يبسط أفكاره ويفصِّل آراءه فى الكتاب الثانى .

لعلّ من الصواب لنا أن نبحث هنا فى الحياة فى (يوتوپيا) بحثاً مقتضباً لا يشوبه التطويل والاسهاب ، إلا إذا اقتضت شؤون السكان الخاصة الإفاضة فى تصوير مبادئها . إن (يوتوپيا) هى جزيرة شيوعية لم يعد فيها مكان للملكية الفردية وحقوقها . أما من جهة السلوك الخلق فيظهر أن السكان هم من أتباع بنتام المثقفين لأنهم يعتقدون « باللذة » مع تحفظ واحد فقط : ذلك أنه يجب أن لا تحجب اللذة القليلة لذة أكبر منها ، وأنه يجب على الانسان أن لا يتمتع بلذة يعقبها أذى وضرر كبير » . والظاهر أنهم كانوا

---

١ ـ ص ٤٥ من يوتوپيا

ملمّين بنظريات اللذة والألم [١] (Felicific Calculus) . أما فى الشؤون الدينية ، فقد كان رجال الدين على جانب عظيم من الصلاح ، ولذلك فقد كان عددهم قليلا . و (يوتوبيا) بلاد قوانينها تكاد تعد على الأصابع وليس فيها محامون ـ همهم إخفاء الحقائق وإفساد القانون ـ ومن خواص سكانها الأخرى أنهم « يحبون راحتهم » و « يبتهجون كثيراً بالمُجّان » .

إن الحياة فى يوتوبيا خاضعة لحكم شديد مطلق ؛ وكل أمر من شؤونها يجب أن يكون طبقاً لأنموذج معين يقتدون به ويقلدونه . وجميع المدن مرقمة وتقع على مسافات متساوية بعضها من بعض . « وفى الجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة يجمعها لسان واحد ، ويصدر سكانها عن عادات وتقاليد واحدة ، ويخضعون لأحكام قانون واحد [٢] » . وعدد الأسر التى تسكن كل مدينة ، وعدد أفراد كل أسرة تقيم فى الريف أو فى المدينة مربوط بقدر معلوم : « ولا تجد داراً ومزرعة يقطنها عدد من الناس يقل عن الأربعين شخصاً ، رجالا ونساء ، بالاضافة الى مملوكين اثنين من الرقيق . وهؤلاء جميعا يخضعون لادارة رب الدار وزوجته ، وهما شيخان حكيمان وحازمان . ولكل ثلاثين مزرعة أو ثلاثين داراً حاكم عام هو فى الواقع أمين عام [٣] . « ولا يجوز أن يزيد عدد الأسر فى كل مدينة عن ستة آلاف ، ويجب أن يكون فى كل أسرة فى المدن عدد لا يقل عن عشرة أولاد ولا يزيد عن ستة عشر ولداً أعمارهم فى الرابعة عشرة أو تقاربها [٤] » . ولهم قضاتهم — حكامهم ونقباؤهم — إذا كان فى هذه المعلوت فائدة ترجى . ولهم أمير

---

١ - ص ١٤ ٢ - ص ٨٥

٣ - ص ٨٦ ٤ - ص ١٠٦

ومجلس عام لتصريف أمورهم . ولكن المواطنين العاديين ـ شأنهم فى ذلك شأن رعايا كل الدول ذات الحكم المطلق التى يسودها شكل الحكم الاستبدادى ـ ممنوعون من التدخل فى شؤون الدولة . « والحكم بالموت ينتظر كل من يجتمع ويتشاور فى شؤون الدولة خارج دار المجلس أو خارج دار جمعية الشعب العامة . وهم يقولون إن هذا القانون قد وضع للحيلولة دون تواطئ الأمير والنقباء وتآمرهم على ظلم الشعب وإخضاعه لرغباتهم بالقوة . ولذلك فان المشروعات الجليلة الهامة يطرحها النقباء بادئ الأمر على بساط البحث أمام أَسَرِهم فى دار جمعية الشعب . وبعد أن تتشاور الأسر فيها تعلن قرارها إلى المجلس . وفى بعض الأحيان ترفع المسألة بكاملها الى مجلس الجزيرة العام [1] . وينتخب النقباء — وعددهم مئتان — أميراً للمدينة . وهم يقسمون أولا على انتخاب من يعتقدون فيه الكفاءة والصلاح ، ثم ينتخبون بطريق الاقتراع السرّى . ويجب أن يقع الانتخاب على واحد من الأربعة الأشخاص الذين يعينهم الشعب . ويستمر الأمير فى منصبه طوال أيام حياته ، إلا أن يُخلع أو يعزل لظلمه الشعب . أما النقباء فيجدد انتخابهم سنويا . ويحضر النقباء مع الأمير الى دار المجلس مرة كل ثلاثة أيام إلا إذا اقتضت المصلحة حضورهم فى فترات أخرى أقصر من ذلك[2]» . وتحمل (يوتوبيا) حملات شديدة على التجمع فى الحانات والتنقل فى شجون الأحاديث هناك ؛ لئلا يتخذ من الجلوس فيها ستارٌ للبطالة والكسل . « لا توجد فى الجزيرة حانات للخمر والمِزْر ، ولا توجد فيها مطابخ ومطاعم عامة ، وليس فيها أماكن معدّة للفسق والفجور ، وأيضاً ليس فيها أماكن

---

١ - ص ٩٥

٢ - ص ٩٤

لجمعيات الفساد [١] » . ويمارس كل فرد من السكان صناعتين ، الزراعة - وتعلمها واجب على كل رجل وامرأة فى الجزيرة - وصناعة أخرى كنسج الثياب من الصوف والكتان وأعمال البناء والحدادة والنجارة وما إلى ذلك [٢] . أما لباسهم فهو من شكل ونوع متماثل يلبسه جميع سكان الجزيرة ولا اختلاف فيه إلا ما يميز الرجل من المرأة ويميز المتزوج من الأعزب ... وكل أسرة تحيك ثيابها بأيديها . وهم يلبسون للعمل أردية مصنوعة من الجلد ويغطونها بعد ساعات العمل بأقبية مصنوعة من الصوف تُلبس بلونها الطبيعى فى جميع أنحاء الجزيرة [٣] . ولا تتغير أزياء الملابس أبداً . وقد قسموا اليوم فى (يوتوبيا) الى أربع وعشرين ساعة خصصوا منها ستاً للعمل ، ثلاثاً قبل الظهر يقضونها ويتوجهون مباشرة لتناول الغداء ، وبعد ذلك يستريحون ساعتين ويعملون ثلاث ساعات أخرى ثم يتوجهون إلى موائد العشاء . ويذهبون إلى النوم فى الساعة الثامنة مساء ، فينامون ثمانى ساعات . ولكل امرئ أن يقضى أوقات فراغه - أى الأوقات التى تتخلل ساعات العمل والنوم والطعام - كما يشتهى ويختار ، شريطة أن يستمع الى بعض المحاضرات فى مختلف العلوم يوميا فى الصباح ، وأن لا يشغل نفسه فى الفساد والكسل [٤] . ويجب على كل إنسان أن يعمل ويشتغل ، ما عدا فئة قليلة من السكان انقطعت للعلم وعكفت عليه ، فأذن لها الشعب بذلك وأعفاها من العمل ما دامت تتعلم ، وإذا لم تثبت كفاءتها وتظهر حسن استعدادها سحبت منها الإجازة وأعيدت الى العمل . وعلى النقيض من هذا الأمر إذا تبين أن أحد العمال يقضى أوقات فراغه فى التعلم ويستفيد من ذلك لفرط ذكائه وفطنته وجده ، عندئذ ينقل من الحرف اليدوية إلى صف جماعة العلماء . وينتخب من بين هذه الجماعة السفراء ورجال الدين

---

١ - ص ٩٧ ٢ - ص ٩٧ ٣ - ص ١٠٤ ٤ - ص ٩٩

والنقباء والأمير نفسه [١] » . وقد جاءت فى الكتاب عبارة بارزة ردّدتها الكتب فى الأزمان التالية لتاريخ الكتاب ، تلك هى المتصلة بالفكرة القائلة بأن ساعات العمل الطويلة تَنتجُ من وجود جيش كبير من القاعدين والكسالى والعاطلين عن العمل ؛ ولو أن كل فرد من السكان يقوم بقسطه من العمل بإخلاص ومهارة وذمة لوُزّعَ العمل توزيعا صحيحا ، ولخفّ العبء الذى يصيب كل عامل ، ولأصبحت ساعاتٌ قصيرة من العمل تكفى حاجة الناس جميعا . وليس تخصيص ست ساعات من العمل يومياً بالشئ اليسير ، بل إننا نجد أن هذا الزمن هو أكثر مما يجب تخصيصه إذا ما نظرنا إلى العديد الأجزل من أبناء الأمم الأخرى القاعدين عن العمل :

« إننا نجد أن النساء بوجه عام يقمن بقسط قليل من الأعمال مع أن عددهن يبلغ نصف بنى البشر ؛ وإذا وجد بين النساء بعض المجتهدات العاملات فذلك لأن أزواجهن هم من القاعدين . ثم علينا أن نسقط من الحساب جماعة الرهبان العاطلين عن كل عمل ، ومن هؤلاء من يُدْعون رجال الدين ؛ أضف إلى هؤلاء جميع الأغنياء ، ولا سيما أولئك الذين يملكون إقطاعات من الأراضى واسعةً ، وهم الذين يُسمون الأشراف والأفاضل ، مع أسرهم المؤلفة من أشخاص عاطلين عن الأعمال ، وهم موجودون للنظر لا للاستعمال ؛ أضف إلى كل هؤلاء جميع الأقوياء الشديدين من المتسولين ، الذين يجوبون البلاد متظاهرين بأنهم من الزمنى ، ليكون لهم عذر ينتحلونه للتسول . وفى نهاية الحساب تجد أن عدد الناس الذين ينتفع بنو البشر بأعمالهم هو أقل كثيراً مما كنت تظن [٢] » .

وعلاوة على ما تقدم فان عدداً قليلا من العمال الذين يشتغلون ،

---

١ - ص ١٠٢   ٢ - ص ١٠١

يقومون بأعمال مفيدة لحياة بنى الانسان : « لأننا ونحن نقيس جميع الأشياء بنسبتها الى النقود ، ننشىء صناعات كثيرة فاسدة لانفع لها ، وهى على النقيض من ذلك ، تورث الثورة وتنشر البذخ والترف بين الناس[1] » . لقد كانت هذه الفكرة عزيزةً على قلب فوريير Faurier فيما تلا ذلك من الأزمان ، فقد سرَّه وأبهجه أن يُصنِّفَ جميع طبقات « الطفيليين » من بنى الانسان . وفوق كل ما ذكر ، فهنالك مسألة هامة ردَّدتها جميع كتب « المدن الفاضلة » هى أن من يحيا حياة بسيطة يلقى حُسن الجزاء . لأن كمية العمل تنقص إذا تجنب جميع الناس اقتناء الكماليات ونبذوا تغيير الأزياء . « وهكذا إذا استخدم جميع العمال فى عمل مفيد ، ومـا داموا يقنعون بالضرورى للحياة المتَّزنة المركَّزة فستتوفَّر الأشياء والحاجات بكثرة لديهم[2] » . ويقصد مور (أو رفائيل هيثلودى) أن يضع من كل هذا نظرية اقتصادية خاصة هى : إنه ينتج من ضم العمل المشترك ، إلى الحياة البسيطة ، والآلات والأدوات المناسبة الفعالة : أن تنخفض ساعات العمل الى حد كبير جدا . وقد علق الكتّاب الذين جاءوا بعد زمن مور على هذه النظرية وقالوا بامكان تطبيقها .

لقد نظمت الحياة فى داخل (يوتوبيا) على أسس شيوعية : تجلب الميرة إلى الأسواق الاربع الرئيسية فى كل مدينة ؛ ومن هناك توزع مجاناً على الوجه التالى : أولاً تؤخذ منها حاجة المستشفيات ؛ ثانيا تؤخذ منها حاجة الموائد العامة ؛ ثالثا يعطى الفائض الى كل من يرغب فى أن يمتار . غير أنهم فى الواقع يأكلون جميعا على الموائد العامة لانه لا يقبل شخص ما — إذا لم يكن لديه مبرر معقول أو عـــذر مقبول — أن يأكل فى بيته لا من

---

١ — ص ١٠١   ٢ — ص ١٠٥

السخرية وسخف العقل أن يجشم المرء نفسه متاعب تهيئة طعام فى بيته ما تيسر له أن يتناول طعاماً فاخراً شهياً على الموائد العامة [١] . وقد قرأنا فى صفحة أخرى من الكتاب عبارةً هى غاية فى التشاؤم لتعلقها بحجز الحرية « لقد ألزم فى (يوتوپيا) كلُّ إنسان طائرَه فى عنقه » فحجزت حريته من جميع الوجوه [٢] . وكل موادِّ المسرّة وحاجات الحياة يحصل عليها الناس فى الجزيرة مجاناً بلا ثمن أو مقايضة أو رهن . ذلك لانه لا حاجة تُحتّم حبس أى شئ عن الناس ، فكل الاشياء متوفرة بكثرة ولا يخشى أن ينضب معينها ، لأن كل ما يستعمله الناس منها لا يتعدّى غيضاً من فيض ، اللهم إلا إذا تهافت الناس على جمع ما يزيد عن حاجاتهم ، ولا يُعقل أن يفعل الناس ذلك ويجمعون أشياء موجودة بكثرة . والواقع اننا نجد فى جميع ضروب الحياة أن المخلوقات ، إما لخوفها من فقدان الحاجات فى المستقبل تعمد إلى جمع الأشياء بالنهب والسلب ، وإما للتباهى بتكديس أشياء عندها أكثر من غيرها . وهذه الشرور غير موجودة فى يوتوپيا [٣] » .

وتسبق كل غداء وعشاء محاضرة فى الأخلاق « فيقرأون شيئاً يتعلق بالسلوك الحسن والفضيلة . ولكنهم لا يطيلون لئلا يملَّ الحضور ذلك . ويبدأ الكهول فى الحديث ثم تتاح الفرصة للشبان ليظهروا ذكاءهم وكفاءاتهم [٤] » . وهذه المحاضرات والأحاديث فى (يوتوپيا) هى من الأسباب التى تنفر من الأكل فى البيوت الخاصة .

وفى الجزيرة تجارة : ولكنها تقوم على أركان غريبة ووفاقاً لأصول ومبادئ عجيبة خاصة (بيوتوپيا) . ولها نتائج لم يألفها التجار فى العالم . يحرص أهل يوتوپيا على أن تتوفر فيها المؤن والحاجات الضرورية قبل

---

١ — ص ١١١ ٢ — ص ١٠٩ ٣ — ص ١٠٨ ٤ — ص ١١٣

السماح بتصدير أية كمية من محصولاتها . ويشترطون أن لا يقل المخزون فى الجزيرة من أجل الاستهلاك المحلى ، عن المقادير التى تحتاج اليها البلاد مدة سنتين كاملتين . ثم يسمحون بالتصدير الى الخارج ، تارة دون ما ثمن أو مقابل ، وطوراً فى مقابل كميات هائلة من الذهب والفضة . وإليك ما ورد فى الكتاب عن التجارة :

« ولما كان هذا هو أسلوب الشعب فى المعيشة والتجارة ، كان بالضرورة محتوماً أن يحتفظوا بكميات هائلة من المواد والسلع . ولما كان أفراد الشعب يشعرون بأنهم جميعاً شركاء فى تلك المواد لا يوجد بينهم من ينعت بالفقر أو يوصف بالغنى . وعندما يجتمعون فى مجلس الأمة (الذى يعقد سنوياً فى عماروت — وهى العاصمة) ويحضره ثلاثة مندوبين عن كل مدينة ، يطرح أمام المجلس الفائض من المحصولات فى بعض المدن من جهة ، والعجز فى محصولات بعض المدن من الجهة الأخرى . ثم يحوَّل بعض الفائض إلى المدن التى هى بحاجة إليه مجاناً وبدون أى مقابل ما . وعلى هذا الوجه تعتبر الجزيرة بكاملها أسرة واحدة أو داراً واحدة . غير أنهم بعد ما يحتفظون بكميات من المحصولات تكفى الجزيرة كلها (وهم لا يعتبرون أن المحصولات تكفى البلاد إلا إذا احتفظوا بكميات تكفيهم مدة سنتين على الأقل) لأنهم لا يستطيعون التثبت من جودة محصول سنتهم الثانية ، يصدّرون من المحصولات الزائدة عن حاجتهم كميات كبيرة إلى الخارج . وهم يصدّرون الحبوب والعسل والصوف والكتان والخشب والصباغ والفراء الارجوانية والشمع والشحم والجلود والحيوانات الحية . ويوزّعون سُبع هـــذه الصادرات مجاناً على فقراء البلاد المستورِدة . أما الباقى فيبيعونه بأسعار مناسبة ومخفضة . وفى مقابل هذه البضائع يستوردون إلى بلادهم كميات هائلة من الذهب والفضة ومن الاشياء الاخرى التى يحتاجون اليها ؛ وهى فى الواقع ليست سوى الحديد . ونظراً لانهم ساروا فى تجارتهم على هـــذا

المنوال منذ أجل طويل فقد أصبح لديهم الآن كميات كبيرة من هذه الاشياء تزيد عما يتصوّره كل إنسان فى مثل تلك الظروف . ولهذا فقد أصبح سيان عندهم الآن أن يبيعوا فى مقابل نقدى ؛ أو أن يبيعوا نسيئة على أن يكون الدفع فى أجل معين . ولكنهم فى حالة الدين لا يعتمدون الافراد وانما يقبلون ضمان المدينة كلها فتوقع كفالة بالنيابة عن المدينة وبالإضافة اليها . ومتى حلّ أجل الدفع تجمع المدينة الدين من الافراد وتضعه فى صندوق عام وتنتفع به الى أن يطلبه اليوتوپيون . والواقع أن يوتوپيا لا تطالب بالقسط الاكبر من الدين المستحقّ لهـا ، لأن المطالبة بهذا الامر (الذى لا يكون ربحاً لهم ، وانما هو ربح للآخرين) ليست حقاً ولا معقولة . ولكن اذا أدّى الحال الى أن يقرض المدينون ذلك المال الى قوم آخرين فعندئذ يطالب اليوتوپيون بما لهم ؛ ويطالبون أيضاً بذلك المال اذا دخلوا فى حرب . لان الغاية التى من أجلها يكدّسون الذهب والفضة فى بلادهم هى الاحتياط للاخطار العظيمة أو النكبات الطارئة . ولا سيما أنهم يستأجرون الجنود الغرباء ويدفعون أجوراً باهظة لهم ، لأنه خير أن يعرّضوا الغرباء لمواجهة الأخطار من أن يطوّحوا بأبنائهم أمامها : وهم يعلمون أن بوسعهم أن يشتروا ويبيعوا حتى أعداءهم [١] » .

إن ما اقتبسناه هنا بصدد الذهب والفضة هو فى الواقع غاية أصحاب المذهب التجارى (Mercantalist Ideal) فى الاقتصاد الذى يرمى إلى جعل البلاد تغص بالذهب . ولكنهم مزجوا بتلك الغاية ازدراءهم واحتقارهم للذهب والفضة ولكل مواد التبرّج والزينة : « إن حماقة الناس وجهلهم هى التى رفعت قيمة الذهب والفضة نظراً لندرة وجودهما فى العالم [٢] » . وليس

---

١ — ص ١١٨ ٢ — ص ١٢٠

لهذين المعدنين منفعة لايستطاع التجاوز عنها . ولكى لا تخدع قلوب اليوتوپيين ، ويغووا بعبادة ما يسمى بالمعادن الثمينة ، فان الذهب يستخدم لصنع الأوانى البيتيه كالقدور والأباريق التى تستعمل على الموائد العامة وفى البيوت الخاصة ، ويصنعون من الذهب أيضاً السلاسل والاغلال التى يربطون بها مماليكهم . واذا أرادوا التشهير بأحدٍ ألبسوه فى أذنيه أقراطاً ذهبية وفى أصابعه خواتم ذهبية وفى عنقه سلاسل ذهبية وربطوا رأسه بعصابة من ذهب [١] » .

وإننا نقع فى هذا الخيال المسمى (يوتوپيا) على أمرين يسيئان إلى شعور الحضارة الحديثة : الأول أن اليوتوپيين لا يدخلون الحرب انتصاراً لمبادىء قويمة أو إحقاقاً لحقوق ثابتة صحيحة .

وهذا لايبرِّؤهم من تهمة الاستعمار : إذا زاد عدد سكان الجزيرة عن الحد الذى يسمح لكل إنسان أن يتمتع بحياة لينة ناعمة ، فعندئذ يرسل اليوتوپيون مستعمرين إلى المناطق المجاورة لهم ، فيختارون من كل مدينة عدداً من المواطنين ويقيمون لهم مدينة جديدة وفاقاً لشرائعهم على أرض مواتٍ خربة لا يقيم فيها أحد ، ويضمُّون إليهم بعضاً من سكان تلك المناطق .. إذا اختاروا أن يساكنوهم وينضموا اليهم ... وإذا رفض أولئك السكان الانضمام اليهم والعيش معهم ، فعندئذ يؤمرون بالخروج من الحدود التى رسمها اليوتوپيون لأنفسهم ؛ وإذا قاوم هؤلاء وثاروا يعلن اليوتوپيون الحرب عليهم . لأنهم يعتبرون أن أعدل أسباب الحرب أن تمنع أمةٌ أمةً أخرى من إحراز جزء من الأرض لا تفلحها ولا تستفيد منها وإنما تتركها خراباً يباباً ، لأن لكل إنسان حسب منطوق القانون الطبيعى حقا فى جزء

---

١ — ص ١٢١

من الأرض الخراب يصلحها ويستغلها لإعالته وإغاثته [١]» .

هذه هي نظرية (مجال الحياة Lebensraum) سافرة عارية . ومن الطلىّ حقاً أن نرى القانون الطبيعي يُقحَم هنا ، ويقحم بصورة منطقية فيما يتعلق بحقوق جميع سكان العالم إجمالاً في جميع أراضي العالم إجمالاً وليس فقط في الحقوق الوطنية الفردية التي يدّعيها أبناءُ الوطن الواحد في أراضيهم كحقوق الافرنسيين مثلا في أراضي فرنسا . « ويحارب اليوتوبيون — علاوة على ما تقدم — من أجل غايات ثلاث : يحاربون من أجل حماية وطنهم من العدوان الأجنبي، ويدخلون الحرب لمساعدة أصدقائهم وحلفائهم في إخراج العدو الأجنبي من أوطانهم ؛ ويحاربون لكي ينقذوا من الاستعباد والظلم شعباً مضطهداً ومظلوماً [٢] » . وفي حالة الحرب يحارب اليوتوبيون بشجاعة عظيمة ولكنهم يفضلون أن يستأجروا بالمال جنوداً مرتزقة يخوضون غمار الحرب إلى جانبهم « لأنه خير أن تعرض الغرباء للخطر الداهم من أن تطوّح بمواطنيك وتقذف بهم في ساحات الوغى ونار الحرب الموقدة [٣] » . وبوسعك أن تكسب الحرب بالمهارة والخدعة دون اللجوء إلى إراقة الدماء ، لأن أعداء اليوتوبيين كثيراً ما يمكن شراؤهم بالمال أو باغوائهم على الخيانة ليصبحوا عيوناً على أمتهم [٤] » . وهذا يعني في الواقع تشكيل طابور خامس في بلاد الأعداء يحرّضون على قتل أمرائهم .

والأمر الثاني الذي يسيء الى شعور الحضارة هو أننا ما نزال — وفاقاً لما ورد في يوتوبيا — في عالم الرق . لأنه علاوة على ضرورات الحروب التي تقتضي وجود الرقيق ، فان نعيم يوتوبيا يستوجب وجود طبقة من الرقيق وظيفتها القيام « بالأشغال الشاقة » ، وتقوم هذه بأعمال الجزارين تلك الأعمال التي يعتبرها اليوتوبيون المتأنقون أعمالا حقيرة . وتقوم أيضاً بكل

---

١ — ص ١٠٨   ٢ — ص ١٦٢   ٣ — ص ١١٩   ٤ — ص ١١٩

الأعمال الكريهة لكى لا يبقى للآخرين سوى الأعمال الناعمة اللينة . وبينما نجد ساعات العمل اليومى لكل يوتوبى لا تتجاوز الست ، نشاهد أن الرقيق يعمل طوال ساعات اليوم ، ويعمل وهو مقيد بالسلاسل والأغلال .
والرقيق فى يوتوپيا ، طبقة مختلفة الأنواع ؛ منها مجرمو اليوتوپيين أنفسهم المحكوم عليهم ؛ ومنها مجرمو الشعوب الأخرى الذين يجلبهم التجار إما مقابل ثمن معين وإما بدون مقابل . يضاف إلى هذين الصنفين فقراء الشعوب الأخرى الذين يفدون إلى يوتوپيا مفضّلين عيش الاستعباد فيها على الحرية فى بلاد أخرى وهذه الفئة تعامل معاملة أفضل من معاملة الصنفين الأولين، وهى تستحق أن تُعامل بالحسنى . ويعامل العبد الآبق والعبد الثائر معاملة الوحش ، ويُقضى عليه بالموت آخر الأمر . إن التوصية بعقوبة الاستعباد فى (يوتوپيا) هى فى الواقع احتجاج على عقوبة الإعدام التى كانت تنفذ حالاً فى كل من يرتكب أتفه الجرائم . ذلك لأن العبد ينفع المجتمع من الوجهة الاقتصادية ، بخلاف المجرم الذى ينفذ فيه حكم الإعدام . إلا أن ثمة عيباً يلازم (يوتوپيا) وهو وجوب وجود طبقة من الرقيق تقوم بالأشغال الشاقة .

ولقائل أن يقول إن هذا هو ضرب من القصص الخيالى ليس إلا ؛ ولقائل آخر أيضاً أن يقول إن هذا سخيف مضحك ، وإن ذاك غريب مستحيل ؛ والواقع أن هذه الأقوال صحيحة ؛ ولكن علينا أن نذكر فى هذا الصدد أن مور كان أحد أولئك التعساء فى الوجود الذين صُبغ هزلهم بالجد والوقار ، وشاب جدّهم دعابة انقضّت عليه من كامن نفوسهم ؛ هؤلاء الناس تعساء حقاً لأن المجتمع لن يفهمهم . وأحسن حظاً منهم أولئك الذين يصرّحون عند هزلهم بأنهم يهزلون ، ويقولون عند جدّهم إنهم يجدّون . لقد كان مور من أصحاب الخيال الذين يبنون القصور فى الهواء . ولسنا ملزمين بأن نأخذ بحرفية كل ما كتبه . ولكن لو تسنى لنا أن ننفذ إلى سريرته ونتفرّس فى عينيه ونقرأ ما أخفى فى نفسه ، عند ما كتب أو فكر فى بعض فقرات كتابه ،

لفهمناه على حقيقته ولعرفنا ما قصد اليه من ذلك الكتاب . ولكننا نجد الأقلَّ من الخيال يُغشِّى المواضيع الجوهرية التى يطرقها رفائيل هيثلودى عند ما يتصدَّى ، وهو منقبض الصدر للبحث وراء العدالة وطلب الانصاف وينددِ الظلم والجور اللذين هما من ثمار الأنانية الناشئة عن حب الانسان للمال والمادة والسلطان . ونخرج من ذلك كله بنتيجة واحـــدة هى — فى رأيه — أن الشيوع ضرورة لازمة لهـــذا العالم . ولكى نتمكن من تقدير الأثر الدائم الذى خلَّفه مور ليس علينا إلا أن نستمع إلى هيثلودى فى ساعات مرحه وحبوره ، وننصت إلى أفكاره النيرة وآرائه القيمة ، وقد نعجب منها وندهش لها ونحسبها ، وهى تتلى علينا ، أنها قيلت بالأمس أو فى صباح اليوم ولعل فى إيراد بعض مقتبسات منها — وهى مع الأسف مختصرة بقدر ما يسمح لنا المقام به — ما يغنينا عن عرضها كاملة . وأولها يتعلق بمساوىء الملكية الشخصية ، وهو قول موزون إلى حد ما ، ويقع فى آخر الكتاب الأول حيث يتطلع هيثـــلودى إلى (يوتوپيا) ليقابل بأحوالها الأحوال السيئة التى سادت انكلترا يومئذ .»

« إننى أرغب فى أن أبوح صراحة بما تكنه نفسى ويخالج ضميرى : إننى لا أتصوَّر مطلقاً أن بالامكان أن تُحكم بلاد بالعدل ، وأن يتمتع سكانها بالسعادة ، ما دامت هنالك ملكية شخصية للاشياء ، وما دامت النقود مقياس جميع الأشياء الأخرى . أقول تُحكم بالعدل لأن أحسن الأشياء تؤول إلى أسوإ الناس ؛ وأقول لا يتمتع السكان بالسعادة لأن كل الأشياء تقسم بين نفر قليل (ولا يكون ذلك النفر أيضاً سعيداً سعادة كاملة) وتخيم التعاسة والبؤس على باقى الناس ... وقد رسمتُ هـــذه الأشياء فى مخيلتى ووازنت بينها فى فكرى ، فوجدتنى قد يممت شطر افلاطون ... لأن هذا الحكيم قد رأى بعين بصيرته ، وصائب حكمته ، أن خير وسيلة لاسعاد الأمة هى أن تضع جميع أفرادها فى مستوى واحد ، وهذا لا يمكن تحقيقه ما دامت

فى الوجود ملكية شخصية ؛ ذلك لأنه ما دام كل إنسان يستأثر لنفسه بكل ما يستطيع الحصول عليه من الأشياء بشتى الطرق والأسباب والوسائل ، فيجمع نفر قليل من بين أفراد الأمة الكثيرى العدد الثروةَ ويُخصّون بها فينتج عن ذلك أن يعضّ الفقر بنابه العديد الأجزل . وهذا ما حدا بى الى القول إنه لن يكون توزيع عادل وصحيح لجميع الأشياء إلى أن تزول الملكية الفردية من الوجود ، كما أن العالم لن يحكم بوجه يضمن السعادة للناس الى أن يتم ذلك . وما دام نظام الملكية الشخصية سائداً فستظل أكثرية الجنس البشرى وخيارُ أبنائه تحت أثقال الظلم وأغلال الاستعباد وتُقلقهم التعاسة ويؤلمهم الفقر ... ومع أننى أدرك أن من الصعب ازالة الملكية الشخصية حالا ولكننى أعتقد يقينا أن بالامكان تخفيف ويلاتها . لانه اذا سُن قانون يمنع كل فرد من تملك مقدار من الأرض يزيد على مساحة معينة ، ويحظر على كل إنسان أن يحرز ويحوز أكثر من مبلغ معين من النقود . . . فان حدّة هذه المساوئ تخف وأثرها يفقد [1] » .

ونجد هيثلودى يتأوّه عندما يعيد هذا الحديث فى آخر الكتاب الثانى ويقول : إن (يوتوپيا) هى الجمهورية الوحيدة الخليقة بأن تسمى جمهورية ؛ ثم يتابع حديثه :

« أما فى جميع الأماكن الأخرى فاننا نشاهد الناس يتحدّثون عن الجمهورية ، ولكن كل فرد منهم لا يهتم إلا بجرّ المغنم لنفسه وجمع المال لشخصه ؛ ولكننا هنا ، حيث لا يحوز فردٌ ما ولا يحرز أموالاً شخصية ، نجد الناس جميعاً يعملون باخلاص وذمة وغيرة من أجل الصالح العام ؛ والحق أنه ليس بعجيب أن ينتهج الناس هذا السبيل المغاير ؛ لأن الانسان

١ — ص ٧٤

فى البلاد الأخرى يُدرك يقينا أنه إذا لم يدّخر شيئاً لنفسه فسوف يموت فى النهاية جوعاً مهما تكن بلاده فى رخاء مستمر ؛ ومن هنا تنشأ ضرورة تفضيل مصلحته الفردية على الصالح العام ؛ غير أن الحال فى (يوتوبيا) هى على النقيض من هذا : فلكل امرئ حق فى جميع الموجودات ، وكل انسان يدرك أنه ما دامت المستودعات العامة تغصّ بالمؤن والأغذية فلن يحتاج أحد شيئا ؛ وليس ثمة توزيع ظالم ، وليس هنالك فقراء ، وليس هناك محتاجون ؛ ومع أن فرداً ما ، لا يملك شيئاً ما ، فانهم جميعاً أغنياء ؛ ذلك لأنه لا فائدة يجنيها المرء من الغنى أحسن من أن يحيا حياة طيبة هادئة ، ويعيش عيشة هنية راضية لا تشوبها شوائب القلق والاضطراب ، فلا يخشى نوائب الحدثان ، ولا تزعجه زوجته بشكايات لا حدّ لها خوفاً على مستقبلها ومستقبل أولادها ، ولا يحزنه عجزه عن تقديم مهر لابنته . والسكان هنا لا يعبأون أبداً بحياتهم ، ولا يفكرون فى ثرائهم وثراء أزواجهم وأولادهم وأولاد إخوانهم وأحفادهم وجميع عقبهم من بعدهم . ولا ينال العمال المتقاعدون نصيباً من ضروريات الحياة ومستلزماتها يقلّ عن نصيب أمثالهم من العمال الفعالين . وإننى ـ فى هذا المقام ـ أتحدّى كلّ من يجرؤ على مقارنة هذه المساواة بحياة الأمم الأخرى ؛ وليخذلنى الله إن وجدت فيها أثراً للمساواة أو ظلا للعدل [١] » .

ثم ينطلق هيثلودى فى حديثه عن العدل المفقود من العالم فتتجلى بلاغته وتظهر حكمته :

« أقول : أية عدالة هذه التى تمكن للنبلاء والصاغة والمرابين ولكل من لا يقوم بعمل ما ، أو يقوم بأعمال غير منتجة أو نافعة للمجتمع ، فى أن

---

١ — ص ١٩٧

يعيشوا عيشة لينة ناعمة مبهجة ؛ بينما نجد العمال الذين يقومون بالأشغال الشاقة وسائق العربات والحدادين والنجارين والحراثين الذين يشتغلون أكثر من الدواب ، ويقومون بالأعمال الضرورية لحيــاة المجتمع ، تلك الأعمال التى لا يستغنى عنها بلد مّا ، لا ينالون رزق الكفاف ، ويعيشون عيشة بؤس وشقاء ، إذا قيست بها حياة الأنعام كانت أفضل منها ؟ . . . وتدمى قلوب هؤلاء المساكين فرقاً متى ذكروا أيام شيخوختهم المقبلة . إن أجورهم نزرة يسيرة لا تكاد تكفيهم لقوتهم اليومى فضلا عن أن يدّخروا منها شيئا لأيام عجزهم وتعطلهم عن العمل . أليس ظلماً صارخاً ذلك الذى يبسط به الرزق للنبلاء - كما يسمونهم - وللصاغة وأمثالهم من الكسالى الذين لا يعملون شيئا أو يقومون بأعمال لا تفيد المجموع شيئا ، ويقبضه عن الحراث المسكين وعامل المنجم والعمال الآخرين والحدادين والنجارين وغيرهم من أركان الحياة فى البلاد ؟ . . . وفوق كل هذا يقوم الأغنياء ليس بالغش وحده ، وإنما بسنّ القوانين العامة أيضاً ، فينزعون من فم الفقير جزءاً من قوته اليومى . وهكذا فان ما اعتبرناه قبلاً ظلماً صارخاً فى أن يُسلب العامل جزاء عمله المفيد للمجتمع ، أصبح الآن يسمى فى عرف القانون عدلاً [1] » .

وأخيراً استمع إلى هذه الخاتمة الملتهبة التى هى فى الواقع ثورة جامحة على أحوال العالم كله :

« من أجل ذلك فانى كلما جالت بخاطرى تلك الأحوال السائدة فى العالم وأخذتْ علىَّ لبى لا أستطيع كبح جماح نفسى ، غفر الله لى ، عن الاعتقاد بأن كل الحكومات التى شاهدتها أو عرفتها ، هى فى الواقع

---

١ - ص ١٩٩

مؤامرة من الأغنياء ، الذين يستترون وراء حكم الجمهور ، يرومون من ورائها تنفيذ غاياتهم الخاصة ؛ وهم يسلكون فى ذلك كل سبيل وواسطة تؤدى أولاً الى الاحتفاظ بكل ما تملكوه من الأموال التى أحرزوها بالطرق المعوجة ، وثانياً الى استئجار واستغلال عمل الفقراء فى مقابل أزهد الأجور وأتفهها ، وإلى ظلم العمال واستعبادهم [١] » .

إن هذه الآراء (ونحن نوردها على علاتها كما تفوه بها هيثلودى) هى التى جعلت من يوتوبيا كتاباً خالداً مضى عليه أربعمئة عام . وإن من يترسم مبادئ ماركس فى الثورة الاشتراكية يجد فى مور (أو فى هيثلودى ، الانسان الذى خلقه مور) رسوماً توصل الى كثير من تلك المبادئ . وإليك بعضها . وهذه طبعاً علاوة على مساوئ الملكية الشخصية التى تحدثنا عنها فيما سبق حسب رأى مور : تبحث يوتوبيا فى :

(١) سيئات الطبقات غير المنتجة ،
(٢) إسرافنا وإساءة استخدام الأموال ،
(٣) مساوئ النقود ولا سيما تأثير الذهب السامّ ،
(٤) استغلال الغني للفقير ؛ وأخيراً وهذا أعجب مافى الكتاب :
(٥) تصوير الدولة كمنظمة طبقية « مؤامرة بين الأغنياء » .

وإلى جانب كل هذا نجد أمراً لعله يتمشى مع المذاهب الفوضوية — هو الدعوة إلى تخفيض ساعات العمل بتنحية الكسالى القاعدين عن العمل لغير ما ضرورة أو مبرر مقبول ؛ وبازالة الكماليات من الوجود . والحق أنه مهما يقال فى مور فقد أوجد فيه رفائيل هيثلودى تلميذاً من أتباع الاشتراكية الماركسية الثورية لا يشق له غبار [٢] .

---

١ — ص ١٩٩

٢ — ص ٧٠ The Socialist Tradition, Alexander Gray

الفصل الخامس

تعقيب

المؤثرات فى حياة الإنسان الاجتماعية

اقتصرت أبحاث هذا الكتاب على الإنسان . ذلك لأن للانسان قدرة عظيمة على القيام بالأعمال المختلفة تظهر لنا واضحة جلية متى قابلناها بأعمال أنواع الحيوانات الأخرى . فالإنسان وحده هو الذى يتكلم ، ويقرأ ، ويكتب ، ويعبد واجب الوجود ،وينشئ ناطحات السحاب ، ويقدرمراكز النجوم وأفلاكها لمستقبل يمتد مداه إلى ألوف السنين . ولسنا نقصد بهذا أن نستخف بأعمال القردة . تقوم القردة بأعمال تعتبر جليلة إذا قيست ببقية أنواع الحيوان . مثال ذلك أن الشمپانزى قد تعلم أن يدير آلة لتوزيع الطعام ؛ لقد تعلم أن يحصل على الطعام بوضع قطع معدنية مخصوصة فى الثقوب المعينة لذلك ، وأن يميز بين الأحجام المختلفة والألوان المتغايرة ، وأن يدفع كل قطعة إلى ثقبها الخاص ، وأن يدخل — عند الضرورة — قطعتين فى الثقب الواحد . فليست القدرة على التعلم حبساً على الإنسان ؛ إلا أن القردة عجزت عن تعلم اللغة ، أو تعلم الحركات المعقدة . والفرق بين قدرة الإنسان وقدرة القرد على التعلم هو من حيث الدرجة فقط ؛ ولكنه مع ذلك فرق جوهرى بعيد المدى .

ولما كان قعود القرد عن القيام بكثير من الأعمال ناتجاً عن عجزه عن التكلم فلنا أن نتساءل : هل عجزه عن التكلم ناتج عن أنه لا يسمع أحداً يتكلم لغةً ما ؟ وماذا يكون الحال لو أن قرداً صغيراً تربى كما يتربى طفل الانسان ؟ والجواب على هذا جاء من مستر كيلوج وزوجته : فقد ربيا قردة

صغيرة من نوع الشمپانزى مع ابنهما عندما كانت سنه عشرة أشهر ، وكانت سِنُّ القردة سبعة أشهر ونصف الشهر ، واعتنيا بهما عناية طيبة ، وعاملاهما معاملة متماثلة : فكانا يأكلان معاً ، وينامان معاً ، ويلعبان معاً . ولما كانت القردةُ أقوى من الطفل ، وكان نموُّها الجسمى أسرعَ من نموّ جسمه ، فقد كان من الطبيعى أن تكون أمهرَ منه فى الحركات ، وأنفذ منه فى الشؤون العملية كتسلق الأشجار ، والقيام بالأعمال البهلوانية ؛ وقد بذّته إلى حدّ بعيد فى سرعة الحركة . وأعظم من هذا أنها تعلمت كثيراً من الحركات التى يتعلمها الطفل المتمدِّن : لقد أخذت تستعمل الملعقة على الوجه الصحيح فى الأكل ، وشربت السوائل فى الأكواب الزجاجية ، وحذقت النط بالحبل ، وفتح الأبواب وإقفالها . وأتقنت كلَّ هذه الحركات أكثر من الطفل ، وكانت أنصت منه لتلقى الأوامر ، وأطوع منه فى تنفيذها . أما فيما يتعلق بمسألة التكلم ، فقد قبعت القردة فى المؤخرة . لقد « أدركت » معنى كلمات كثيرة ، وفهمت جُملاً عديدة ، ولكنها عجزت عن التكلم . غير أن الطفل ، طبعاً ، تعلم التكلم على الوجه المألوف[١] .

يجب أن نفترض أن هذه البراعة الممتازة فى التكلم هى مطبوعة ، اختصت الوراثةُ الإنسانَ بها . ولا يمكن أن تنشأ من حياة الجماعة فقط ؛ ذلك لأننا نشاهد الحيوانات الدنيا تعيش جماعات كما يعيش الانسان . ولا يصحُّ أن تعزى إلى البيئة وحدها ، فالشمپانزى تربَّى فى محيط إنسانى جنباً الى جنب مع طفل إنسانى ، ومع ذلك فقد ظهر أن قابليته هى دون قابلية الطفل بكثير . إن الإنسان وحده ـ دون سائر الحيوانات ـ قادر على تعلم اللغة ، قادر على حلّ

---

١ — John wolfe , Effectiveness of token Reward for Champanzees . 1936 - as quoted in A Handbook of Sociology, p.1 by ogburn and Nimkoff W. N. and L.A. kelogg, The Ake and The child.

أصعب المسائل الرياضية ، متمكن من تصميم الطائرات وبنائهـــا ، وله من المؤهلات ما يكفى أن يجعل منه وزيراً محنَّـكاً . على أننا نجهـل بمعرفتنا الحاضرة حدود قابليته للتعلم .

وهنالك أربعة عوامل تؤثر فى حياة الانسان الاجتماعية ، هى : المحيط الطبيعى ، والتراث الاجتماعى Social Heritage ، والوراثة ، والجماعة . وكل هذه العوامل تؤثر تأثيراً جليـــلاً فى حياة الإنسان وتجاربه . ولا يمكن للباحث — إن تغاضى عن دراسـتها — أن يصل إلى وصف دقيق لتلك الحياة ، أو أن يتوصل إلى معرفة كنهها . ومن الغريب أن هـذه العوامل المختلفة لا تؤثر منفردة ومستقله . إنها تعمل متحدة ؛ وتقوم بينها صلات وعلاقات لا تنفصم عُراها . وتقوم الثقافة — فى رأى علماء الاجتماع — على قوى الإنسان العقلية السامية . وليس للقرَدة تراث اجتماعى من أى نوع كان ؛ ولعلّ السبب الرئيسى فى ذلك هو فقدانها للقوة العقلية الكافية . إن للجماعة أيضا تأثيراً كبيراً فى إنماء الثقافة ؛ ويستحيل علينا أن نتصور وجود تراث اجتماعى إذا كان كل فرد من الناس يعيش فى عزلة عن بقية أبناء العالم . وهنالك ولا شك صـلة قوية بين الثقافة والجغرافيا . ونقصد بالثقافة هنا الحركات السلوكية التى يرثها الخلف عن السلف بعضهم من بعض - جيلا بعد جيل - من طريق التعلم . ولـكى نتمكن من إدراك حقيقة حياة الإنسان الاجتماعية لا بدَّ لنـــا من الوقوف على الصلات القائمة بين الثقافة وعلم الأحيـاء ا وبين الثقافة والجماعة ، وبين الثقافة والجغرافيا . ويمكن إرجاع حركات الإنسان السلوكية إلى أصلين : أولا : إلى الوراثة ، وثانيا إلى التعلم من الجماعة . فيأخـذ الإنسان عن الوراثة مثلا الرضاعة ، والبلع ، وتحريك العينين وما إلى ذلك من الحركات ؛ ويتعلم من الجماعة تـكلم اللغة العربية ، ولبس الطربوش ، وقيادة السيارات وما إلى ذلك . أما عمليـات اكتساب هذين النوعين من الحركة فليست واحدة ، وإنما ، هى متغايرة ومختلفة . فأما

الأولى فهى عملية بيولوجية تنتقل بواسطة جرائيم الحياة فى البويضات ؛ وأما الثانية فهى عملية بسيكولوجية اجتماعية ، تتضمن الانتقال بواسطة نظام للاتصال مبنى على قدرة الإنسان على التعلم .

لقد وُجد أصل الاجتماع والثقافة فى أبعد العصور القديمة فى عالم الحيوان ، غير أن انعدام التكلم ، حتى بين الطبقات العليا من القردة ، يحُدِّد إلى أمد بعيد الكميةَ المحرزة فى التفهم والثقافة على السواء . والإنسان وحده هو الذى يحرز ثقافة حقيقية . وقد أكملته تلك الثقافة لأن ينظم شؤون حياته .

والتنظيم هو حركة فعالة تقوم بها الجماعة لكى تنفِّذ عملا ما . فلو افترضنا أن كرة كبيرة تحتاج فى زحزحتها ونقلها من مكانها إلى قوة قوامها أحد عشر رجلا ، يقاومهم فى ردّهم عن هدفهم عددٌ مماثل من الرجال ، فلا شك أن تنظيمهم إلى مهاجمين ومدافعين يُعتبر خطة اجتماعية مُثلى . ذلك لأنهم يصيبون نجاحاً أكبر مما لو تقدموا يضربون على غير هدى دون التزام أى نوع كان من التنظيم . والواقع أننا لو افترضنا أن (س) هى كمية العمل التى يقوم بها الفرد، عندئذ فان ١٠٠ شخص إذا نُظِّموا تنظيماً صحيحاً يقومون من العمل بكمية ليست ١٠٠ س فقط . والبراهين الرياضية لا تدحض ؛ ولكن هذه المسألة اجتماعية . فاذا مزجنا الرياضة مع الاجتماع نجد اننا نحصل من تنظيم ١٠٠ شخص على ١٠٠ س تضاعفت مرات عديدة ، لا مرة واحدةً .

والسلوك المشترك المنظم هو خير من السلوك المشترك غير المنظم . فقد يحدث أن ينال الدهماء والغوغاء غايتهم بسرعة دون أن يخضعوا لتنظم ما ، كما يحدث عند ما يفر الناس من بناية التهمتها النيران ؛ غير أن الربح فى هذه الحالة الفجائية ينتج عن التنبه والتحريض على العمل وليس من انعدام التنظيم . لأن التنظيم بقيادة رئيس وتوجيه يُسهِّل إخلاء البناية . وإن القواد العسكريين

وزعماء الأحزاب ، ورؤساء نقابات العمال ، ووكلاء الدعاية والاعلان ، وألوف الجمعيات والجماعات ذات الغايات الخاصة ، يعترفون بما للتنظيم من أثر محمود فى إنفاذ غاياتهم .

وإن قسماً كبيراً من التنظيم الاجتماعى - وليس التنظيم كله - ناتج عن أعمال رتبت عن عمد وتصميم . وقد وجد كثير من المنظمات دون أن يوضع له تصميم خاص أو يُجعل له غاية خاصة . إن المثال على قيام تنظيم دقيق عن غير قصد موجود فى نحو اللغات . فالنحو فى أية لغة نشأ من غير تنظيم وتصميم سابق : وكذلك نجد أن نظام الأسرة قد نشأ من غير تنظيم سابق . إن نظام الأسرة دقيق جداً عند بعض الشعوب التى تشعر بوجوده، ولكنه لم يخلق حسب تصميم معين كما أوجدت هيئة الأمم المتحدة مثلاً . لقد ميز (سمنر[١]) بين المؤسسات الاجتماعية التى جاءت نتيجة قصد وتصميم فى إيجادها ، وبين المؤسسات التى نشأت عن غير قصد وتصميم مع الزمن . وقد دعا الأولى « موضوعة[٢] » وسمى الثانية « ذاتية[٣] »

إذا رمينا حفنة من برادة الحديد على قطعة من الورق نجد أنها لا تتخذ شكلا معيناً ؛ غير أننا إذا بدأنا فوضعنا قطعة مغناطيس على شكل حذوة حصان تحت الورقة ، ثم ألقينا بالبرادة فوقها ، نجد البرادة تتجمع حول طرفى المغناطيس المخفى . وإن الأمر على مثل هذا الوضع مع أفراد الجماعة . إنهم يتجمعون فى بيت ، حول مائدة فى المساكن المعدّة للنوم ، أو بالقرب من آجام الصيد وبرك الأسماك . وإن عمليات النوم ، وجمع الأطعمة ، وصنع الآلات والأدوات ، والاتجار لا تتم لمرة واحدة فقط ، وإنما هى تتكرر

---

١ - William G. Sumner, Folkways

٢ - Enacted   ٣ - Crescive

وتتجدد دائماً ، وفى خلال التكرار تنتخب أحسن الطرق لاتمامها . ويضم الأفرادَ الذين يشتركون فى تلك العمليات التنظيمُ الناشيء من التكرار المستمر . وكما أن المغناطيس يحتم على البرادة أن تتخذ لهـا شكلا معيناً ، كذلك نجد أن الرغبات الإنسانية العامة تحتم على الحركات البشرية أن تنتظم فى سلوك اجتماعى خاص . تنشـأ المنظمات الاجتماعية لكى تسد حاجة اجتماعية معينة .

على اننا لا ندعو كل حركة إنسانية منظمةً اجتماعية . فالكثير من تلك الحركات هو من عادات الجماعة . إن العادات التى هى من قبيل أصول التحية وتناول الطعام مثلاً ليست فى الواقع سوى أمـور تتعلق بأصول معيشة الشعب . ولكن عادات الجماعة الموجودة فى كثير من الثقـافات خلال أزمان طويلة قد اصطلح على تسميتها « المنظمات الاجتماعية » . من الأمثلة على ذلك البابوية ، والأسرة ، والدولة . وهذه المنظمات قد وجدت لتسدّ حاجات معينة لبنى الإنسان كإقرار الأمن بين الناس ، وإيجاد المـأكل والمأوى ، وتنظيم العلاقات الجنسية ، وتهذيب النشء .

الآن فلنتصوّر ماذا تكون عليه الحال بعد خمسين سنة. ستصبح التجارة غير ما هى عليه فى الحاضر. وسيصيب التغيير الحكومات . وقد يتغير الدين فى بعض البلدان ، كما سيتغير نظام الأسرة . لقد رأينا فى الفصل الخاص باصول الحكم أن التغيير يصيب المؤسسات والمنظمات اليوم ، كما أصابها فى الماضى ، ولكنه اليوم أسرع مما كان . ولكى نتصور ماذا تكون عليه الحال حينذاك علينا أن نبحث فى طبيعة « التطور الاجتماعى » .

ولما كان العالم اللامادى Super organie يتغير بسرعة زائدة فعلينا أن نبحث فى أسباب تغيره، وماهى وجوه التغير فيه . إننا نعرف جيداً مما سمعناه عن حياة سكان الرّبع الخالى فى جزيرة العرب أنهم لم يتغيروا فى حيـاتهم خلال الخمسمئة سنة الأخيرة على الأقل . أما فى بقية البلاد العربيـة مثلاً

فقد وقعت خلال هذه المدة تغيرات عظيمة . لماذا وقعت تغيرات كبيرة فى انكلترا مثلاً ، ولم تقع فى الربع الخالى ؟

سنحاول فيما يلى أن نتلمس الجواب لهذا السؤال مما كشفت عنه الأبحاث الاجتماعية النقابَ من العوامل . وسنبين العوامل التى تساعد على نمـــوّ الثقافة واتساعها والأساليب التى تنمو بها . وهنالك عوامل تساعد على التغير الاجتماعى وعوامل تعوقه . وسوف نبحث فى معوّقات هذا التغير . عندما تقع التغيرات فان قيمتها تظهر فى تأثيرها على الحياة الاجتماعية . وجلىٌّ أن التغير فى فرع من الثقافة ينتج تغيراً فى فرع آخر من فروعها ؛ ولـكن طرق التغير تحتاج إلى بحث مسهب يتنـــاول أثر الاختراع فى الحياة الاجتماعية .

إن توجيه التغيرات هو أمر جليل . والتغير ضرورة ملحَّة ، ولـكنه ليس مفيداً دائماً . هنالك قوى عاملة فى كل مجتمع دأبها هدم المنظمات القائمة وتعطيل أعمالها وإنتاج ما يسمى «المشكلات الاجتماعية» . وإن تعطيل النظام الاقتصادى مثلاً ينتج إيجاد العمال العاطلين ، والبؤس الاقتصادى . سوف نبحث فى هـذه العوامل المؤدية إلى « التفـكك الاجتماعى » . وسنبحث فى العوامل التى تقاوم هذا التفكك . نجد فى المجتمع الحديث كثيراً من الناس همُّـهم لا أن يخففوا من حدّة المشكلة فقط ، بل أن يبرهنوا على صحة قيامها أيضاً . ومن هنا تنشأ فـكرة « التقدم الاجتماعى » . إن المسألة التى تدور حول قدرة الانسان على بنـــاء عالم أحسن من الذى نعيش فيه هى مسألة هامة . وهذه المسألة تستدعى البحث فى « تكييف الإنسان للثقافة » .

والآن فلنبدأ البحث فى مسألتين هامتين : العمليات التى يتم بها تجمُّـع الثقافة ، وسرعة نموّها . إذا صعدت إلى رأس منارة الاسكندرية مثـلاً وتلفتَّ حولك ثم صوَّبت نظرك فى المدينة التى أمامك ترى عمـــارات ،

وترامات ، وسيارات ، وسفناً ، وسككاً حديدية ، وخطوط تليفون ، وجسوراً، ومخازن ، ومساجد ، وكنائس ، ومدارس، ومصانع ، وسينمات ودوراً ومنازل . فاذا كنت باحثاً وسألت : كيف وُجدتْ كل هذه الأشياء ؟ لعلّ الجواب يكون : لقد خلقتها خلايا الدماغ الرابضة فى المادّة الشهباء التى تملأ جمجمة هذا الإنسان المحتال الفخور . هذا جواب خادع ! إن هذه الأشياء لم تخلق جميعها دفعة واحدة . قد تكون أرض المدينة بلقعاً قبل مئين من السنين . غير أن إيجاد الأشياء التى رأيتها قد استغرق ما لا يقل عن نصف مليون سنة . إن الإنشاءات التى تغصّ بها المدينة ترتكز على اختراعات اكتشفت قبل آلاف السنين مثل اللولب (البرغى) والنخل اللذين استعملا فى العصر الجليدى أو قبله .

وإن انقضاء هذه المدة فى النمو يعنى أن الثقافة تتجمع . وإن المدينة الممتدة بجوار المنارة قد وجدت لأن الثقافة تتجمع ؛ إن صانعى الأدوات الأقدمين الذين كانوا يصنعون أدواتهم من الحجارة بقطعها ، حسّنوا أساليب صناعتهم باستخدام المتفجرات . وقد أدخلت مع طول الزمن تحسينات أخرى على تلك الأساليب . فعرف النقْر والجرْش والسنّ والحفر فى تلك الصناعة. ثم استعملت العظام فى صنع الأدوات ، واستعملت القرون واستُخدم العاج أيضاً . وعقب ذلك عهد المعادن التى توجد خالصة من التراب كالنحاس والذهب . وجاء فى الأزمان المتأخرة دور تنقية الحديد وغيره من المعادن من التراب . هكذا تجمعت الثقافة .

ولعلّ الأبيات التالية تبين أصول تجمّع الثقافة :

قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكوّن أرضا
ودقيقاتنا تؤلف جيلاً بعد جيل فى إثره يتقضّى[١]

---

١ - Little Drops of water, littlegrains of sand Make the mighty ocean and the Pleasant land ترجمة الاستاذ الكبير كامل كيلانى

تتجمع الثقافة عند ما يزيد عدد العناصر الجديدة فى أى مدة من الزمن على عدد العناصر التى يهجرها المجتمع لأنها أصبحت غير صالحة للعصر . والعناصر التى تُضم إلى مجموعة الثقافة فى أى إقليم أو ناحية تأتى من مصدرين: فإما أن تُختَرَع ، وإما أن تُستورَد من إقليم آخر . إن جزءاً ضئيلاً من التراث الاجتماعى فى أى إقليم نشأ محلياً فى ذلك الاقليم . فالتراث الاجتماعى ينمو ويتسع فى إقليم معين عن طريق الإذاعة . ومعنى « الإذاعة » نقل مواد الثقافة من بقعة إلى بقعة ، ونقل تلك المواد من قسم فى ثقافة معينة إلى قسم آخر منها . وتنمو الثقافة فى أقاليم صغيرة محلية . لسنا نجد ثقافة واحدة للأرض كلها . نجد ثقافة ألمانية وثقافة فرنسية مثلاً . إن أمنية المصلحين أن يسود العالمَ يوماً ما ثقافة واحدة . وليست مناطق الثقافات منعزلة بعضها عن البعض تماماً . إنها متجاورة متصلة . ينتج عن ذلك أن الاختراعات التى تنشأ فى منطقة تنتقل إلى المناطق الأخرى . ويكاد يعم استعمال السيارات مثلاً العالم كله . بعض المناطق تستوردها والبعض الآخر يصنعها . لم تخترع السيارة فى كل تلك المناطق . فقداخترعت فى ألمانيا وانتشرت منها فى جميع أنحاء العالم ودخلت أمريكا فى سنة ١٨٩٣ .

يدخل فى كل اختراع جديد تتضمنه ثقافة ما ، عناصر قديمة إن هنالك استمراراً فى الثقافة . وكل اختراع جديد يرتكز على الاختراعات القديمة التى سبقته ، فلا يمكن إنتاجه إلا إذا أوجدت عناصر تلك الاختراعات . ويستفيد المخترع الحديث من اختراعات أسلافه . لقد برهنت الوقائع التاريخية على صحة النظرية القائلة : ينتج عن ازدياد تجمع الاختراعات ازدياد سرعة التغير الثقافى . ولا يعتبر من الحكمة أن نقول إن العالم ينتج اليوم جميع حاجات الإنسان المادية وأنه لذلك لم يبق مجال جديد للاختراع. والواقع أن ثمة حاجة لاختراعات كثيرة ، وقد عدَّد أحد المؤلفين ألفاً

وخمسمائة اختراع ما تزال الحاجة ماسة اليها . وما دامت هنالك اختراعات جديدة فهناك تغير سريع يصيب الثقافة .

والآن ما هي العوامل التي تعوق التطور الثقافي ؟ هنالك عاملان مهمان يعملان على إعاقة نموّ الثقافة : يبطيء التغير الاجتماعي في حدوثه إذا قل ظهور الاختراعات ، وإذا أعرض المجتمع عن قبـــول الاختراعات بعد ظهورها إلى حيز الوجود .

ما يزال سكان الربع الخالي اليوم يلبسون على رءوسهم الكوفية والعقال كما كان يفعل أسلافهم منذ مئات السنين . وما يزالون يسكنون في بيوت يقيمونها من الشعر . لماذا ظلت ثقافة هؤلاء الناس ثابتة لم تصبها يد التغير بشيء خلال هذه الأحقاب من الزمن ؟ الجواب : إن ذلك ناتج عن انعدام الاختراعات بينهم . والواقع أن عـــدداً ضئيلاً فقط من الاختراعات يظهر في المناطق الصغيرة . ثم إن هـذه البقعة كانت منعزلة عن العالم فلم تصلها مخترعاته ، ولا مجال لوصولها اليها نظراً لأن السكان لا يستطيعون دفع أثمانها لفقرهم المدقع .

وعلى ذلك فان انعدام الاخـــتراعات هو من أسباب إعاقة التغير الاجتماعي في مجتمع ما . إن وجود الاختراع دليل على وقوع التغيير ، وإذا كان عدد الاختراعات قليلاً ، كان عـدد التغييرات قليلاً أيضاً . ولنا أن نتساءل الآن : لماذا يقلّ عدد الاختراعات ؟

الاخـتراع صعب . لم يتمكن العلماء حتى الآن من اكتشاف علاج للسرطان . لقـد احتيج إلى انقضاء زمن طويل قبـل أن أصبح السفر في الطـائرات مأموناً . وانقضت مئـات من السنين إلى أن صارت الآلات

---

١ — Raymond F. Yates, Fifteen Hundred Needed Inventions, 1933.

البخارية على ماهى عليه الآن . كل هذا ينهض دليلاً على أن من الصعب إنتاج الاختراعات ، ومن الصعب جداً إنتاجها إذا كانت معقدة . وعندما حلل الباحثون الصعوبات التى تكتنف إنتاج الاختراع وجدوا أن كل اختراع يستند إلى ثلاثة عوامل :

أولاً : وجود العناصر والمواد الضرورية للاختراع الجديد . ذلك لأن الاختراع هو مادة جديدة تتألف من عناصر لا مندوحة عن وجودها قبل إيجاد الاختراع الجديد . إن وجود الاختراعات والمواد التى يتألف منها الاختراع الجديد هو عامل فى وجوده . ثانياً : لابدّ من وجود الطلب للاختراع ، ونعنى بالطلب الضرورة . ومن هنا نشأ القول المأثور « الحاجة أم الاختراع » . ثالثاً : المقدرة العقلية على الاختراع . وقد تكون هذه المقدرة موروثة ، وقد تكون مكتسبة . ولكنها موجودة على أى حال بنسبة معقولة بين السكان . أما أديسون فكان يقول : إن الاختراع لا يحتاج إلى عبقرية بقدر ما يحتاج إلى عمل شاق متواصل . ولسنا نعلم هل كان جاداً فى هذا القول . وقد اكتشفت بعض الاختراعات فى القديم عرَضاً مثال ذلك أن النار اكتشفت من حك حجرين أحدهما بالآخر .

إن انعدام المعرفة التامة تحول دون إنتاج اختراعات تصلح من أول الأمر للغرض الذى اخترعت من أجله . لذلك نجد الناس يتذمرون من بعض الاختراعات الجديدة تذمراً يعوق نجاحها . وقد تطرح بعض الاختراعات فى السوق ولكن الناس يرفضونها . ويتسبب ذلك عن أن تلك الاختراعات إذا نجحت تؤثر فى أقسام أخرى من الثقافة . وكلما زاد تماسك أجزاء الثقافة الواحدة ، زادت مقاومة الناس للاختراعات الجديدة . وقد تظهر إلى حيز الوجود مقاومة اختراع جديد إذا كان الناس يستعملون اختراعاً قديماً آخر يقضى حاجاتهم حتى لو كان الاختراع الجديد أحسن

وأفضل منه . إن العناصر القديمة — على هذا — تستأثر فى الوضع وتشفع به وتلك ظاهرة تسمى « قوة الاستمرار الثقافى » .

يظهر أن مقاومة التغير هى - من الوجهة السيكولوجية الاجتماعية - من قبيل خلق عادات جديدة . يألف الناس عمل الاشياء على وجه معين زمناً طويلاً ، فيصعب عليهم تغيير ما ألفوه . وكلما طال أمد التعامل على وجه معين ، زادت الصعوبة فى تغييره ، ولذلك نجد الشيوخ يقاومون كل تغيير يصيب طراز حياتهم الذى ألفوه . هذا هو الخوف من كل جديد ، والتعلق بأهداب الحالة الراهنة ، وإبقاء ما كان على ما كان . ولعلّ أشدّ الناس فى مقاومة الجديد الجماعة التى لها حقوق مكتسبة ، لها امتيازات تدرّ عليها أرباحاً لو بقى ما كان على ما كان .

ولعلّ من المناسب هنا أن نبحث فى أثر الاختراع فى الحياة الاجتماعية . قد لا يقتصر الاختراع المهم على التأثير فى حالة اجتماعية واحدة . يؤثر بعض الأحيان فى حالات كثيرة فيمتد عمله اليها فى نواح مختلفة . مثال ذلك اختراع الراديو . أثر فى التسلية ، وفى التعليم ، وفى السياسة ، وفى صناعة النقل ، وفى نواحى أخرى كثيرة . وقد عددت لجنة أمريكية عينت خصيصاً لهذا البحث مائة وخمسين مسألة فى الحياة الاجتماعية أثر فيها الراديو[١] .

لقد بحثنا فى الاختراعات المادية . إن هنالك « اختراعات اجتماعية » : وهى تشمل كل اختراع ليس ميكانيكياً ، وكل اختراع ليس اكتشافاً فى العلوم الطبيعية . وهو فى الواقع « اختراع الجماعة » . مثال ذلك كل الاختراعات فى الثقافة غير المادية كالاسبرنتو ، وتأشيرة المرور على جوازات السفر ، وامتحانات الذكاء ، وإصلاحيات الأحداث ، والمخيمات الصيفية وما إلى ذلك .

---

١ — Committee on Recent Social Trends, 1933.

تحدث الاختراعات الاجتماعية تغييراً اجتماعياً أيضاً . وهذا التغيير هو الذى ترمى إليه التشاريع الاجتماعية . إن ضريبة الدخل أو الايرادات التصاعدية مثلاً ، لها أثر اجتماعى مهم : ذلك هو إعادة توزيع الثروة . وإذا كانت الضريبة تصاعدية حادة وأيدتها التشاريع الاجتماعية ، فأنعمت بالفوائد على الطبقات الفقيرة بشكل التأمين الاجتماعى ، فان النتيجة هى أن تأخذ المال من الغنى وتعطيه للفقير . وعلى ذلك فاننا نلاحظ هنا أن اختراعين اجتماعيين أو أكثر تعاونت فيما بينها على بلوغ غاية واحدة هى إعادة توزيع الثروة . وكذلك نجد اختراعين اجتماعيين آخرين هما قوانين تشغيل الأحداث والتعليم الإلزامى ، قد غيرت فى حياة الأسرة ، فحدّت من سلطان الوالدين على أولادهم .

ولما كان كل تغيير اجتماعى يقع بوساطة الأفكار ، يجدر بنا أن نتساءل : من أين تفيض الأفكار ، وما هو مدى تأثيرها ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نقول : إن هنالك نوعين مختلفين من الأفكار ، هنالك الأفكار التى تدور حول الحقائق والأشياء المادية ، وهنالك الأفكار التى تدور حول الخيال . وقد تنشأ الأفكار الخيالية من مطامح الإنسان ومطامعه وآماله ، أو من الخوف ، أو من العواطف الأخرى ، وتسمى تلك الأفكار « المعتقدات [1] » . من هذا القبيل العقيدة بأن يوم القيامة يقع بعد مرور ألف سنة على أيام السيد المسيح عليه السلام . ومن ناحية ثانية قد تنشأ الأفكار من ملاحظة الظاهرات المختلفة . مثال ذلك المعرفة الناشئة عن مراقبتنا لكيفية إدارة دفة سفينة بحرية . ثم إن ثمة أفكاراً هى مزيج من الضربين السابقين . والواقع أن الأفكار الواقعية والأفكار الخيالية هما طرفا مقياس الأفكار وفى المسافة التى بينهما تأخذ الأفكار المتنوعة منازلها . ولعل

---

١ — Carl G. Jung, The Psychology of the Unconscious, 1927

من أمثلة الأفكار التي هي بين الحقيقة والخيال الفكرة الرئيسية في نظرية « حرية التعامل » Laissez - Faire المتعلقة بأعمال الدولة ، فكثير من الناس يعتقدون أن أحسن الحكومات هي أقلها تحكماً وتدخلاً في شؤون الحياة . إن القوى الاقتصادية تُوازن نفسها عند تفاعلها لتزويدنا بما نحتاج اليه من الأشياء . وعلى ذلك فان هذه الفلسفة ـ عند هؤلاء الناس ـ هي تفكير مقصود . وفي الوقت عينه هنالك حكومات كثيرة قد نجحت في سياستها عندما اتبعت سياسة معدّلة بالنسبة لنظرية « حرية التعامل » . وهكذا نشأت بعض الافكار من التفكير المقصود ، وبعضها من الملاحظة والمراقبة .

أما تأثير الأفكار ـ مهما يكن منشؤها ـ فان العالم المادي يتأثر بالأفكار الواقعية وبالأفكار الناشئة عن الملاحظة والمراقبة ، أكثر مما يتأثر بالمعتقدات . وإن الثقافة المادية لا تلين بسهولة أمام الأفكار الخيالية . مثال ذلك أن الانسان في هذا العالم الذي تهيمن عليه أسباب المدنية الحديثة ، كثيراً ما يحلم ويتمنى أن يعيش عيشة أجداده القدماء البسيطة . ولكن هذا الحلم يعسر تحقيقه في زمن الساعات الحديثة والمنافسة التجارية .

على أن المثُل العليا الناشئة عن الأفكار الخيالية تؤثر في الثقافة المادية . وإن الأفكار المقصودة في العظمة القومية تحمل أمة صغيرة أن تخصص أكثر من نصف ميزانيتها للبرامج العسكرية . إن فكرة العرق التي اعتنقها الاشتراكيون الوطنيون في ألمانيا لا تستند إلى أساس صحيح في علم الإنسان أو علم الأحياء ، ومع ذلك فقد لعبت دوراً كبيراً في بناء اقتصاد مستقل لألمانيا زوّدها بحاجاتها المادية .

والواقع أن للخيال نصيباً من التأثير على العالم المادي ، كما أن للحقيقة تأثيراً عليه ، ولكن تأثير الحقيقة فيه أبلغ . إن لادّعاءات دعاة الإعلان — إذا أخذوا الأجر الذي يطلبونه — أنهم يستطيعون أن يجعلوا الناس

يعتقدون بصحة أى شئ يلقونه عليهم ، نصيباً كبيراً من الصحة . وإن أصل الفلسفة الاجتماعية كالفردية والاشتراكية والديموقراطية يدل على أنها مزيج من الأفكار الحقيقية والخيالية . وإن المدن الفاضلة التى خصصنا هذا الكتاب لها هى مزيج من الافكار الحقيقية والأفكار الخيالية أيضاً . والواقع أن التطور الاجتماعى يحدث بوساطة الأفكار ، وأن الثقافة المادية أكثر ما تتأثر من الأفكار الواقعية . وتتأثر تلك الثقافة أيضاً — ولكن إلى حدّ أقل — بالتراث الاجتماعى ، كالفنّ والدين والفلسفة الاجتماعية .

وأبرز ما يكون تأثير الثقافة المادية هو فى المنظمات الاجتماعية . إن الصناعة الحديثة هى مخلوق أوجدته اختراعات توليد القوى ، والماكنات التى تدار بتلك القوى المصنوعة من المعادن . إن بعض النتائج أثرت تأثيراً كبيراً فى التطورات الاقتصادية التى أثرت هى بدورها على حياة الأسرة . وكادت بعض التأثيرات تكون روائية ، كما هى الحال فى تأثير الإجهاض على نسبة المواليد وعلى الأخلاق . أما الدين فلم يتأثر كثيراً بالتطورات المادية ، ذلك لأن موضوعه هو غير القيم المادية ، ومع ذلك فان العقائد لم تنج من أن يصيبها ظل من أثر الاكتشافات العلمية . ولعلّ الدولة هى أشدّ المؤسسات تأثراً بتغير الأدوات والمعدات ، وقد تأثرت أساليبها كثيراً بانتاج اختراعات الأسلحة والمعدات الأخرى ، وتأثرت باختراعات المواصلات والنقل . وهذه الاختراعات عملت على توسيع منطقة حكم الدولة كما عملت على توسيع مدى اختصاص وظائفها .

وعلينا الآن أن نبحث فى التفكك الاجتماعى : ينتج التفكك الاجتماعى من التغير السريع الشامل . وقد يكون ذلك التغير عنيفاً وسريعاً كما فى حالة الحرب والفيضان ، وقد يكون ليناً بطيئاً كما يؤثر كساد حالة التجارة فى سوق الأموال غير المنقولة ، وكما تتأثر تجارة البلاد المحايدة من

وقوع الحرب فى البلاد المجاورة لها . ويحدث التفكك عادة من تآلف القوى التى تحدث التغير الاجتماعى . والآن ما هى العوامل الأساسية التى تحدث التفكك الاجتماعى ؟ أحد تلك العوامل ضياع التوازن بين الإنسان وثقافته وبين المحيط الطبيعى الذى يعيش فيه . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد يُنتج انتشار الأوبئة إبادة سكان بلدة أو منطقة بكاملها . يقال إن الوبأ الاسود عند ما اجتاح انكلترا فى سنة ١٧٤٨ أهلك ثلث السكان أو نصفهم فى مدة تقل عن السنة الواحدة ، وأن الكوليرا قضت على جميع سكان مدينة زعز (التى كانت إلى جنوب البحر الميت على مقربة من العقبة) وكانوا حوالى أربعين ألفاً فى القرن السابع للهجرة . ويفكك الحياة الاجتماعية أيضاً الزلازل والبراكين والفيضانات وغيرها من المصائب التى ينزلها غضب الطبيعة بالجنس البشرى . ويتوقف مدى التفكك الاجتماعى على أهلية الثقافة الموجودة لأن تتلاءم مع هذه الظاهرات الطبيعية . لقد تسلحنا اليوم بمعرفة تمكننا من منع حدوث الأوبئة ووقف سريانها ، ومن بناء بيوت من الحديد ـ كما فى سان فرانسسكو ـ لا تؤثر فيها الزلازل، ومن إقامة السدود لمنع الفيضانات . إن قوة العوامل الجغرافية فى إحداث التفكك الاجتماعى تتوقف إذن على حال الثقافة المحلية . كان أثر هذه العوامل شديداً فى المجتمعات الجاهلة وفى الأزمنة القديمة . وقد قطعت وسائل النقل الحديثة داء الجوع من كثير من البلدان . إلا أن العوامل الجغرافية كالاعصارات والفيضانات والقحط ماتزال ذات أثر فعال فى المشكلات الاجتماعية .

ومن العوامل التى تحدث التفكك الاجتماعى فقدان التوازن بين طبيعة الانسان الموروثة وبين مقتضيات حياة الجماعة وثقافتها . إن طبيعة الإنسان تتغير بوساطة جرثومة الحياة ببطء متناهٍ بينما تتغير الثقافة بسرعة . تتطلب حياة الجماعة التعاون بين الافراد ، ورعاية حقوق الآخرين ، غير أن نزعة

الإنسان الى التعدى ، وحب التملك ، لم تخضع بعد لمقتضيات حياة الجماعة . قد يسرق الإنسان أو يرتكب جريمة القتل فيحدث بعمله تفككاً ، وقد يسبب رجل مشاكس وقح مقداراً كبيراً من التفكك أيضاً .

أما العامل الرئيسى الثالث الذى يحدث التفكك الاجتماعى فهو التباعد الذى يحدث بين أجزاء الثقافة الواحدة المتآلفة عند ما يتغير كل جزء منها على حدة بنسب متغايرة وسرعة غير متساوية . مثال ذلك : إن مشكلة البطالة ناشئة من الاختلاف فى درجات التغير . تسلب الاختراعات الجديدة من العمال وظائفهم قبل أن توجد لهم أعمال أخرى . وقد تتسبب البطالة عن الكساد التجارى عندما يتحرك الإنتاج بسرعة تزيد عن السرعة التى تتحرك بها القوة الشرائية عند المستهلك . فالبطالة إذن تمثل - فى هذه الحال - التغير فى الأحوال التجارية الذى يخب فى مجيئه فيسبق التغير الذى يصيب السكان .

يعتور حياة الإنسان الحديثة كثير من التبلبل والاضطراب . عند ما تكون التغيرات عنيفة وكبيرة - كما هى اليوم - فتستولى الحيرة على الناس وتأخذهم الدهشة . هل تسير حياة المجتمع وفاقاً لخطة رسمتها يد الله العلى العظيم ؟ لا شك أن قدرة الله جل وعلا تؤثر فى حياة الإنسان . لقد ذكرنا قبلا أن الوراثة ، والثقافة، والجماعة ما تزال تعمل على مقاومة المحيط الطبيعى البطىء التغير ، وفى عملها تؤثر فى شخصية الانسان وخبرته وتوجه سير المدنية فى المستقبل . ولكن هل ثمة وجهة خالصة تصير المدنية إليها ؟ إن محاولة الاجابة على هذا السؤال تستدعى البحث فى فكرة «الارتقاء Progress»

ارتقى الانسان إلى حالته السامية من حالات دنيا . ويعتقد الكثيرون منا أن الارتقاء ضرورة لا بد من حصولها . ولكن هذا الاعتقاد خاضع للشك فى صحته . إن اليمن اليوم أغنى مما كانت عليه قبل قرن من الزمن مثلا .

ولكن هل جمع الثروة يعتبر ارتقاءً . ندور حول العالم اليوم فى مدة وجيزة إذا قيست بالزمن الذى كان يقتضيه هذا الأمر فى السابق ، ولكن هل يجلب هذا التغير السعادة والطمأنينة والراحة إلى نفوسنا ؟ عندما يزور بعض الشرقيين أمريكا مثلاً تدهشهم المدنية المادية الحديثة ، ولكنهم - فى الوقت عينه - يتساءلون : هل يمثل ما شاهدوه ولمسوه ارتقاءً فى الحياة ؟

ينتج عن هذا البحث استحسان التمييز بين « التطور » و « الارتقاء » . التطور هو التغير فى اتجاه معين . عندما نتحدث عن التطور البيولوجى نعنى توالد بعض الكائنات الحية من كائنات حية أخرى . أما فى التطور الثقافى فان لكل اختراع جديد تاريخاً خاصاً به ، أى إنه ينشأ من اختراعات قديمة معينة ويستند اليها . يصف التطور سلسلة من التغيرات وقعت فى نظام خاص وهو يشير إلى حالة خارجية لا تُقدَّر بأنها حسنة أو سيئة . أما الارتقاء فانه يعنى التغير من الأدنى إلى الخير ، ولذلك فهو يتضمن حكماً بالتقدير الحسن أو حكماً بالتقدير السيء .

وليس فى وسعنا البحث فى الارتقاء دون الاستعانة بمقياس أو معيار نتبين به الدرجة والمستوى . والمقياس ذاتى نسبى . إن القيمة - كالذوق - لا تخضع لمقياس De gustibus non disputandem est وقديماً قيل « لا جدال فى الذوق » . قد يعتبر شخص مّا ، تغيراً معيناً فى الثقافة ، ارتقاءً . وقد يعتبر شخص آخر ذلك التغير بعينه تقهقراً اجتماعياً : ذلك لأن لكل منهما اعتبارات مختلفة سار على هَدْيها .

لقد ارتقى العالم من الوجهة المادية . يستعمل الناس المواد والآلات الفولاذية والمحركات البخارية مثلاً بدلاً من الأدوات الحجرية التى استعملها إنسان العصر الحجرى . بيد أن هذا التقدم لا يعتبر ارتقاءً روحياً ، وإنما هو وصف للأمر الواقع ، وهو أن الآلات والأدوات تعددت

وتباينت وزادت صلاحيتها لشؤون الحياة المادية . إننا نجزم بأن هنالك ارتقاء أصاب صناعة الآلات لأن لدينا مقياساً نصدر حكمنا بالاستناد إليه : ذلك لأننا نقيس صلاحية أدوات العصر الحجرى والعصر الحاضر لقطع الحجارة بالنسبة الى النتيجة . ليس هناك شئ فكرى نعمل على استنباطه فى هذه الحال . أما لو كان غرضنا أن نقدر مدى تأثير استعمال الآلات على المجتمع بالنسبة لأمر معين كالسعادة مثلاً ، فان الأمر يختلف ولا يستطاع الوصول فيه إلى نتيجة قاطعة . إننا لا نجد قيمة واحدة متماثلة لجميع الأشياء فى كل الثقافات وفى جميع الأوقات . مثال ذلك أنه بالرغم من أن السرقة محرّمة فى جميع الأديان ، إلا أن العبيد اعتادوا أن يسرقوا من أسيادهم ، واعتادوا أن لا يعتبروا السرقة على هذا النحو محرّمة .

يعنى « الارتقاء » التقدم فى إحراز العيش الرغيد بوجه عام . وقد أنكر بعض علماء الاجتماع وجود ارتقاء مافى حياة الانسان . قال (دوب Doob) فى كتاب له أصدره سنة ١٩٤٠ [١] : « وهكذا فان علماء الانتروبولوجيا قد حاولوا أن يزيلوا فكرة الارتقاء من نظامهم . فهم يقرّون بوقوع تغير فحسب ، أو لعلهم يقرون بنزعة تتجه بالحياة نحو زيادة التشويش والاضطراب . وليس التغير أو التشويش والاضطراب بحسن أو سيئ ، هنالك تفاوت فى الدرجة فقط وليس فى النوع أو الفاعلية والتأثير ... إن اتجاه الارتقاء التاريخى لا يبرز لنا ارتقاءً ما » . أما (هيلدين Heldane) فقد كتب فى سنة ١٩٣٢ [٢] مايلى : « لقد استعملت كلمة (ارتقاء) وكلمة (تقدم) وكلمة (انحطاط) [٣] على الوجه الذى يليق بمن يطرق أبحاثاً

---

١ — The Plans of Men, by L. W. Doob.

٢ — T. B. Holdane, The Causes of Evolution, 1932, p 153

٣ — ارتقاء Progress ، تقدّم Advance ، انحطاط Degeneration

كأبحاثنا هذه أن يستعملها ليعبر بها عن أفكار معينة ؛ غير أنى أعلم علم اليقين أن هذه الاصطلاحات لا تمثل إلا نزعة الاختيال والفخر الملازمة للانسان . .. إن إنسان اليوم هو ـ على الأرجح ـ أحد المخلوقات العاقلة التى ما تزال بدائية وناقصة . . . وإنه حيوان أسوأ حظاً من القرد . . . علينا أن نذكر ـ عند حديثنا عن الارتقاء ـ فى التطور ، أننا ننسحب نسبياً من ميدان المادية العلمى إلى أرض القيم الإنسانية السبخة » . وقد خطّأ جوليان هكسلى هذا الرأى . قال فى كتابه الصادر فى سنة ١٩٤٨ ما يلى [١] : « إننى أنكر على هيلدن هذا الرأى . لقد أهمل ملاحظة أن الإنسان يتحكم بالطبيعة ويعيش مستقلاً عن محيطه أكثر من أى قرد . إن الإنسان آخر الأنواع الحاكمة التى تتطور . لذلك فان لنا مبررات كثيرة إذا ما دعونا النزعات المؤدّية إلى تقدّمه ارتقاءً . إن القيم الإنسانية ضرورية لإحراز أى ارتقاء فى المستقبل ؛ ولكن القيم البيولوجية كانت تعمل عملها قبل أن يظهر الإنسان إلى الوجود » .

والآن فلنبحث فى المسألة التى كثيراً ما تخطر على بال كل إنسان رزق نعمة التفكير : ما هى غاية الإنسان فى حياته ؟ إننا نجد كثيراً من الشعراء والفلاسفة وعلماء الدين وغيرهم من بنى الانسان يحاولون أن يجدوا هدفاً غريباً لحياة الإنسان . بعضهم يجد غاية الحياة الإنسانية واضحة فى الكتب السماوية التى أوحاها الله جل وعلا إلى رسله ؛ وبعضهم يحاول أن يستنبطها من الظواهر الطبيعية ، ومن الآيات الطبيعية التى يستندون اليها فى بيان غاية الحياة ، حياة النشوء والارتقاء . إن تاريخ الحياة ، على ما يعتقدون ، يؤكد وجود قوة عظيمة وجهت الإنسان فى حياته فى الماضى ، وهى مسيطرة على مقدوراته فى المستقبل . وهذه القوة هى واجب الوجود تبارك وتعالى .

---

١ — Julian Huxley, Evolution, p. 565

لقد أشار جلال الدين الرومى إلى حديثين شريفين فى ظاهرهما تناقض كبير : الأول ، الرضا بالكفر كفر ، والآخر من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى . وقال شارح ديوانه ما نصه : من المعلوم أن جميع أفعال العباد مندرجة تحت مشيئة الله وقضائه . والرضا بالقضاء واجب لما علمت من الحديث القدسى : من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى . والحال أن الرضا بالكفر كفر : فان رضى عبد بالكفر الذى هو قضاء الله تعالى كفر وإن لم يرض به فهو تارك للواجب [١] . وقد جعل الله تعالى الغاية من حياة الناس عبادته « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون » أى إلا ليكونوا عباداً لى ؛ « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . لقد أعدَّت مشاعرهم لأن تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجتهد فى جذبها ودفعها غاية جهدها ، وهم ليسوا كذلك ، بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم إلى النار

هذا من بعض التعليلات فى غاية حياة الانسان . على أننى أعتقد أن هذه هى الأسباب التقديرية ؛ وهنالك إلى جانب تلك الأسباب ، الغايات المستندة إلى عناصر التطور : من التكيف للمحيط ، أو الاختصاص ، الى الارتقاء البيولوجى ، هى غايات ظاهرية فقط . وهى من إنتاج قوى عمياء ، كما أن سقوط حجر من مكان سحيق وحركة المد والجزر فى الأمواج هى

---

١ ـ توفيق ميان : اين دو حديث كه الرضا بالكفر كفر
وحديث ديكركه من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى
ص ١٩٨ من الجزء الثالث من شرح المثنوى تأليف الشيخ يوسف ابن أحمد المولوى طبعة سنة ١٢٢٣ هـ

من إنتاج قوى طبيعية عمياء . إننا نحن الذين أوجدنا غاية للحياة نتلمسها فى الدين وفى التطور كما اعتبر الانسان القديم أن لقوى الطبيعة (كالأعاصير والزلازل) عواطف وشهوات وإرادة . وإذا أردنا أن نضع غاية نتوخاها لإنسان المستقبل علينا أن نضع هذه الغاية بأنفسنا . إن الغايات توضع فى الحياة ولا تكتشف . ولعل ما كتبه العلامة الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه (مناهل العرفان فى علوم القرآن) فى مبحث خلق الأفعال هو من خير ما يصلح لأن نختم به هذا الفصل . قال :

فى القرآن الكريم والسنّة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شئ ، وأن مرجع كل شئ إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه [١] . . . هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد الأمور كلها إلى الله ، معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له فى ملكه ولا فى ناحية من ملكه ، وهى أفعال التكليف من عباده .

ويظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله فى كل شئ ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختار من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها ، لكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاختيارى دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشى وحركات المضغ فى الأكل ونحوها ، وإذاً فليس العبد هو الخالق لها .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة من الكتاب والسنّة ، تنسب أعمال العباد إليهم ، وتعلن رضوانَ الله وحبه للمحسنين فيها ، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم [٢] . وهذه نصوص إذا نظر العبد إليها ، لا يسعه إلا

---

١ - ص ٥٠٦   ٢ - ص ٥٠٨

ان يردّ أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا ، وعقابها إن أساءوا . ويظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجداً لما اختار من أعماله لما كان ثمة وجه لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة ، وكيف يثاب أو يعاقب على ما ليس له ولم يصدر منه .

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التى بجانبها ، فرجحوها ، وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعالَ نفسه الاختيارية ، إنما هى خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف يثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرر من عدالة الله وحكمته فى تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد — وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم — كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع للمكلفين .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما ظاهرها من برهان العقل ، فرجحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، أليس الله خالق كل شئ ، ومنها أعمال العباد ؟

هكذا نجد لكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية ، وتأويلاً سائغاً فيما تؤوله من النصوص المقابلة للنصوص التى بهرتها فرجحتها .

محتويات الكتاب

صفحة

تصويبات

وقعت بعض أخطاء فى هذا الكتاب يرجى القارئ تصحيحها ، منها :

ما وقـــع فى صفحة ٣	سطر ٩	(وصفـه)	والصواب	(وضعه)
٧	» ١٦	(أرقامـاً)	»	(أقساماً)
١٨	» ٢١	(فيحفظون)	»	(فيحفظوا)
٣٦	» ١٥	(من الشعب)	»	(من تنظيم الشعب)
٥٨	» ١٤	(خطراً عليهم)	»	(خطراً عليها)
٥٨	» ٢٠	(فلا يكونوا)	»	(فلا يكونون)
٦٧	» ٦	(انكالية)	»	(اتكالية)